



بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي



١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر - القاهرة - هاتف : ٢٦٣٦٦٨٤

بريع الزمان سعيد النورسي

في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي
إستانبول (٢٧- ٢٩ / ١٩٩٢)

■ البحوث العربية ■

الأساتذة المشاركون

- ادیب ابراهیم الدباغ
- محمد رشدي عبید
- أحمد بهجت
- د. عبدالودود شلبي
- د. عبدالرحیم السایح
- د. عمادالدین خلیل
- حسین عاشور



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رقم الإيداع ٩٣ / ١.٧٥٥
977-5323-07-X

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور احمد عبد الرحيم السايح

الحمد لله رب العالمين . الذي جاء على كل حي بما اليه حاجته ،
ووهب الانسان عقلاً ، به انكشف القناع عن المجهول . وأشرفت على
النفس اسرار الموجودات ، وتجلت معرفة صانع الوجود .
والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين . محمد رسول الله ،
قدوة أهل الحق ، والباحثين عن اليقين .

اما بعد

فإن لكل مقصد وسيلة ، ولكل غاية بداية . وعلى قدر عظم المقصد
والغاية تكون الوسيلة والبداية .

ولقد كانت العقيدة في حياة المسلمين هي النافذة التي يطلون منها
على العوالم الحية . بكل شعب هذه العوالم ، وجنباة جوانب العيش
فيها . كما كانت العقيدة ذاته هي المنظار الذي ترى بواسطته كافة
حقائق العلوم والوجود ، وتفسر على ضوءه مجراها ومرساها .

وان مصدر الفاعلية في عقائد ومبادئ احتوتها رسالة الإسلام كان
الاساس الفكري والروحي لإطار تربوي توجيهي ، يحدد لإنسان
العقيدة ، المؤمن بها ، والمؤمن على سيادتها : اسلوب الإنطلاق والتناسق
والتبلور .

ولا يخفى على احد ان تحديد المواقف التي يلتزمها المؤمن بالاسلام، في مختلف الاحوال والظروف امر يقع في الصميم من مهمات اصحاب اهل العزم.

المواقف العملية التوجيهية لا تكون عملية ما لم تحكم بحركة الانسان وتواجده، وانطلاقاته، والافهني مواقف بعيدة عن ساحات الخمصه، والممارسة، والاستيعاب..

ولقد كانت حياة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حافلة بالمواقف العملية، أهلة بالخصوبة والعطاء..

ولقد كان رضوان الله عليه من أعظم الشخصيات الاسلامية التي برزت في الامة الاسلامية. لتعيد إلى المسلمين شروق الاسلام، وإشراق مبادئه، وحقائقه. ويقول رضي الله عنه: «لو ان لي ألف روح لما ترددت ان اجعلها فداءً لحقيقة واحدة، من حقائق الاسلام».

لقد كان سعيد النورسي على يقين من ان عصره هو عصر إظهار الحقائق الاسلامية، وتقوية الايمان امام الغزو الثقافي والفكري الذي شنته وتشنه الدوائر الحاكمة على الإسلام.

وان الامة الإسلامية في اشد الحاجة الى التعرف على هؤلاء الرجال ودراسة ما تركوه من آثار وتراث. لان الانطلاقة الصحيحة لامة تخطو الى الجدل لا بد وان تسترشد بهؤلاء الاعلام، الذين اضاءوا الدنيا بعملهم وعلمهم.

ولقد كان المؤتمر العالمي «تجديد الفكر الاسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي» المنعقد في استانبول «٢٧ - ٢٩ ايلول

١٩٩٢م» - وثبة هائلة، دلت على عطاء الحضارة الاسلامية في انطلاقاتها.

لقد وجد علماء الإستشراق والفكر العالمي، وعلماء الدراسات الاسلامية، والادب، والجمال، والبلاغة، والتربية في هذا المؤتمر ضالتهم التي كانوا ينشدونها، لدراسة فكر بديع الزمان سعيد النورسي وكلياته ورسائله..

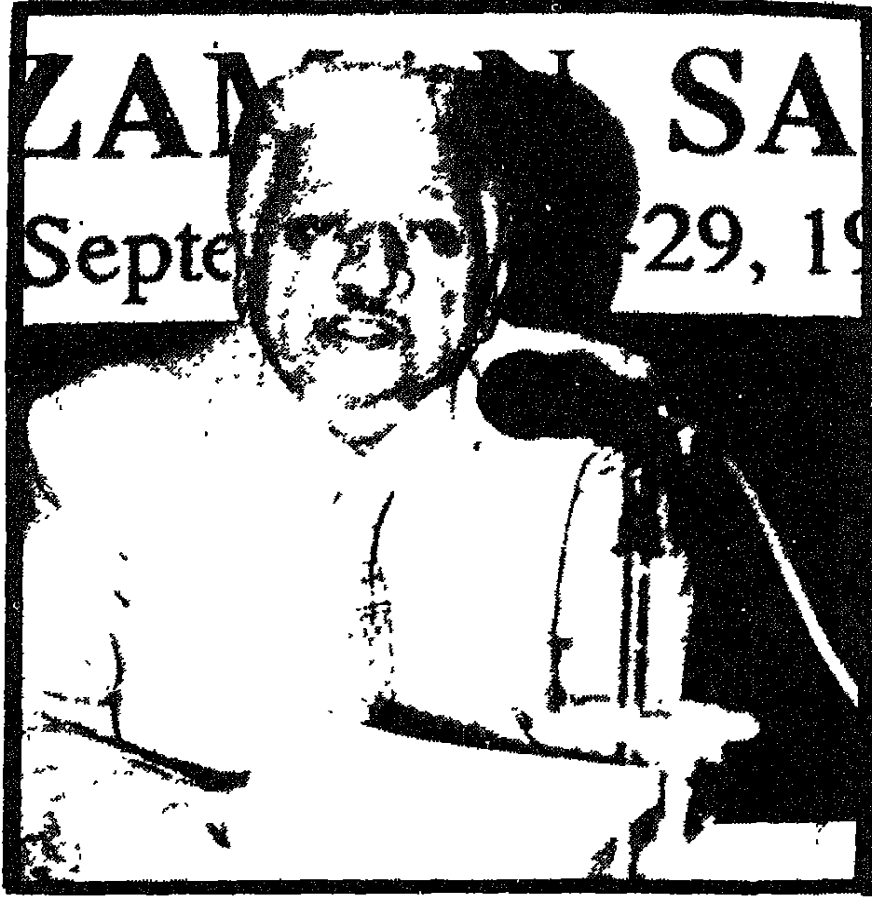
واستطاع هؤلاء العلماء الذين شاركوا في المؤتمر، من المشارق والمغرب ان يقدموا دراسات وبحوثا حول فكر بديع الزمان سعيد النورسي هي ذخائر افاضت على مسامع رجال الفكر والعطاء. ودلت على ان بديع الزمان سعيد النورسي عالم موسوعي، متعدد الجوانب. في مصنفاة، ورسائل كليات النور.

وقد شارك في المؤتمر علماء ومفكرون من تركيا وامريكا والمانيا وانكلترا وايطاليا فضلا عن الاساتذة الذين قدموا من الدول العربية واعدوا بحوثهم ودراساتهم باللغة العربية، والقوها في المؤتمر باللغة العربية. وكانت هذه البحوث تتحدث عن سيرة بديع الزمان، وفكره، ودوره في المجتمع، وأثره، وتأثيره، وملامحه التربوية، ودعوته الاصلاحية، والجمال في كلماته، وتأمله في الطبيعة، وفلسفته في الحياة. مما جعل هذه البحوث تكون في مجموعها: كتاباً متكاملًا، يضم العناوين التالية:

- ١- هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية للاستاذ اديب ابراهيم الدباغ.
- ٢- سعيد النورسي: الرجل والدور للاستاذ احمد بهجت.

- ٣- الإمام بديع الزمان سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان
للدكتور احمد عبد الرحيم السايح.
- ٤- ملامح تربوية من رسائل النور للاستاذ محمد رشدي عبيد.
- ٥- الامام بديع الزمان سعيد النورسي: المصلح الذي تجسدت في
دعوته كل حركات التجديد والاصلاح للدكتور عبد الودود شلبي.
- ٦- رؤية جمالية في «الكلمات».. للدكتور عماد الدين خليل.
- ٧- الاستاذ سعيد النورسي والدفاع الاستراتيجي من خلال التأمل
في الطبيعة للاستاذ حسين عاشور.
- وقد رأينا ان تطبع هذه المجموعة « من البحوث التي قدّمت باللغة
العربية» في كتاب يضمها لتكون مرجعاً مفيداً يلقي اضواء مشرقة حول
فكر بديع الزمان ، واشراق كلياته ورسائله.
- وهذه البحوث والدراسات التي يضمها هذا السفر الجليل اعدّها
علماء ومفكرون وكتاب متخصصون مما جعل لهذه البحوث اهميتها.
- نأمل ان يجد فيها رواد المعرفة، وطلاب الثقافة واصحاب الرسائل
العلمية، العلامات المضيئة في طريق الامة.

الدكتور عبد الرحيم السايح
الاستاذ بجامعة الازهر وجامعة قطر



أديب ابراهيم الدباغ

- من مواليد ١٩٣١ الموصل/ العراق
- عمل في التعليم تسعة وعشرين عاماً.
- مارس الكتابة في الصحف والمجلات منذ الخمسينات.
- نشر مقالاته الفكرية والوجدانية في العراق وخارجه.
- اهتم بالنورسي منذ سنة ١٩٨٠ وكتب في فكره وسيرته الكتب والمقالات والأبحاث.
- وله خمسة كتب منشورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية

لأنّ ما بيننا وبين « النورسي » بعداً مكانياً وزمانياً فلربما نراه - نحن العرب - أفضل مما يراه المقربون منه والملتفون حوله، كأبي بناءٍ عالٍ لا يقدّر علوه إلا الناظرون إليه عن بعد، وأما المحيطون به، والمقيمون حوله، فقد يفوتهم تقدير علوه، واستبانة ارتفاعه.

فالعرب اليوم بأزاء واحد من المفكرين الموهوبين الذين لا يحسن بأحد منهم من المعنيين بشؤون الدين والإيمان أن يتجاهله.

وأنا على يقين بأن رسائله المترجمة الى العربية ستصبح مع الزمن منجم أفكار إيمانية يجود على الطالبين بكل جديد ونفيس منها.

ومنذ اثنتي عشرة سنة وأنا أقرأ « النورسي » وأتعلم منه، واسترشد بآرائه وأفكاره فيما يعنُّ لي من قضايا الدين والإيمان، وقد خرجت من قراءاتي بالآتي:

إننا بازاء رجل يفور روحه بأسرار الإيمان، ويتفطر فؤاده بفجر اليقين، ويلتهب رأسه بأفكار العقيدة، وهو قادر على ايقاظ هوامد أفكارنا، وبعث الحياة في موات نفوسنا وشلل أرواحنا، وقد أوتي فضيلة النطق بكل جليل وجميل من الأفكار. وإن شهاباً ثاقباً من سماء روحه كفيل بإشعال هشيم نفوسنا، وجعلها تتلهب شوقاً الى الله، وتتحرق محبة فيه. ولم يتأت له ذلك إلا بعد أن خاض تجارب روحية كثيرة، أخصبت كيانه، وأمرعت فؤاده، لعل من أهمها تلك التجربة الذاتية التي شكلت منعطفاً جديداً في مسيرة تاريخه الفكري والروحي، فهو حين أنكر نفسه، ورأى منها ما يريب، استنفر شجاعته، واستجمع كل قوى وجوده لتسعه في الانسلاخ عنها، والتنكر لها، ولم يتردد لحظة في نحرها بسكين همته ومواراتها التراب والتكبير عليها أربعاً.

لقد فعل «النورسي» هذا حين أشككت عليه نفسه، وغم عليه هدفه، ولم يعد يعرف من هو...؟ وماذا يريد...؟ وما هي حقيقة رسالته في هذه الحياة...؟ وما السبيل إليها...؟

وعندما وضح الهدف، واستبان السبيل، وقذف في روعه أن رسالته إنما هي إنقاذ الإيمان في هذا العصر المقفر الجديب، ألقى بسعيد القديم وباستشرافه الى الدنيا في تابوت الموت، وقذف به الى يم الماضي السحيق، وما لبث «سعيد الجديد» أن نهض بدلاً عنه، نافضاً عنه تراب الدنيا، ليبدأ رسالة إنقاذ الإيمان، بنفس قوية لا تهزم، وعزم ماضٍ لا يكل، وفؤادٍ صارمٍ لا يضل.

لقد رأى الرجل بقلبه البصير الصادق، وبصيرته المتوقدة الحادة، أن سبب ما يعانیه المسلمون من عوايس الخطوب، وكالحات المحن، يرجع بالأساس الى غياب الوعي الإيماني العميق، وانطفاء العقل المسلم القادر على صنع الأفكار المستنيرة، وتسطح الفهوم والمدارك، وخدر المسلمين بأفيون الدنيا، وفقدانهم للحس بمخاطر ما يحيط بحياتهم... لذا لم ير من الرجولة والمروءة بمكان أن يستبق الأحداث، ويزج بطلابه الذين لم يبلغ الوعي الديني عندهم مرحلة النضج والكمال، لينافسوا الدنيويين على دنياهم في معارك السياسة، قبل أن يموت فيهم - مثله - أي استشراف اليها، ومحبة بها، لأنه يرى أن الدنيا بأسرها لا تساوي قطرة دم واحدة من مسلم تهدر في سبيلها... فما يريد سعيه الجديد مرحلياً هو أن ينشئ جيلاً واعياً مشبعاً بحقائق الإيمان، مستقلاً بالحمل الفادح، ثابت الوطأة، قائم الصلب، أيّد الركن، يملك الدنيا بيده ولا يدعها تلج الى قلبه، يرى الاستشهاد في سبيل حقيقة من حقائق الإيمان شرفاً لا يعدله شرف... الى هذا الهدف كان يرمي في كل ما كتبه في «رسائل النور». غير أنه لم ير مندوحة في مجاهدة الاعداء الآتين من وراء الحدود، لأن الأمر هنا لا يحتاج الى كبير وعي، ولا الى مزيد علم وفقه، فمعلوم من الدين بالضرورة أنه اذا ديست أرض المسلمين من قبل الكفار فالجهاد فرض عين على كل مسلم، فسارع الى تشكيل فرق الانصار من طلابه ومن المتطوعين، وكان ظهير الجيش النظامي في حربه مع الروس، وقد أبلت البلاء الحسن كما شهد له بذلك الاعداء قبل الاصدقاء، حتى إنه جرح وأسر وبقي في الاسر حتى قيام الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ م.

وفي خطبته الشامية ذائعة الصيت لخص «النورسي» أمراض المسلمين، وذكر اليأس والقنوط والشعور بالإحباط كواحد من هذه الأمراض التي داءت بها عقولهم وأرواحهم، فشلت جوارحهم عن الحركة، وقرحت آمالهم وأحلامهم، وجمدت نبض الحياة في عروقهم.

وقد دعا «النورسي» المسلمين لينهضوا ويغالبا هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدمسوس على الدنيا في حين غرة من أهلها، ليهدم بمعاولة كل منارات الهدى، ويطمس على كل ما يمكن للجنس البشري ان يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير.

فالتفاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسر استعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة، وهو النور المسكوب عن وجدان الغيب ليشرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم.

ورسائله كلها تنبض بروح الأمل في مستقبل المسلمين الآتي، إنه يخاطب جيل عصره الذي لا يرى المستقبل، لأن عيونه في قفاه، ويطلب منهم إن لم يستجيبوا له فلا أقل من أن يتواروا ويتركوا الطريق فسيحة لأولئك القادمين الآتين ببيارق الاسلام الخفاقة، إنهم جيل المعجزة الاسلامية التي لا تنقضي عجائبها، وها أنذا أنقل اليكم صوت «النورسي» وهو يخاطب موتى هذا الجيل وينهرهم قائلاً: (ايها الموتى... ايتها القبور التي تمشي على رجلين... أيتها الأجداد المتحركة فوق أديم الأرض... أنتم أيها المنخورون المهزوزون المنهزمون... ابتعدوا... تنحوا عن طريق الأجيال القادمة... افسحوا الطريق للأحياء الممتلئين حياة بروح الاسلام... وامضوا أنتم الى قبوركم التي تنتظركم... تواروا واتركوا المكان لجيل البطولة والابطال القادمين...).

وفي « بارلا » ذلك المنفى القصبي، وجد « النورسي » نفسه رهين غربتين، غربته عن عصره وزمانه، وغربته عن موطنه وأهله وصحابه، حيث لا خل ولا صاحب، ولا سلوة ولا عزاء، ولا مأوى له على ظهر الأرض يؤويه ويضمه الى صدره، فقد صدت عنه الدنيا، وجفاه زمانها، فجنح بطبعه الفطري الى الآخرة، وتوجه اليها، وامتلاً خياله بصورة العالم الأبدى الذي يرجو ان يكون المكان الذي يؤويه يوماً ما، ويضم عليه جناحي حنانه ورحمته. يقول في وصف غربته عن عصره، أنقلها عنه بشئ من التصرف:

(ماذا أفعل...؟ ان قدرني دفعني الى هذه الدنيا في زمان غير زماني... إنه شتاء الاسلام الكابي الحزين... ولا حيلة لي الا أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر... وحين تنبت هذه البذور وتتسبل ويأتي ربيعها أكون أنا قد فارقت الدنيا، لكني سوف، أتسم نسمات ربيع الاسلام وأنا راقد في قبري... فاستشرف مستقبل الاسلام الزاهر هو عزائي وسلوتي في غربتي...).

لقد ذاق الرجل ألواناً من الأحزان، وألبس أثواباً من الشجى والآلام، الا أنه كان ستاراً لشجوه، كتوماً لمصيبته، متلفعاً بعظمته، مستغرقاً في سكينته، منطوياً على الآمه، مستغنياً بنفسه، مستقوياً بربه، مستعلياً على الخوف، قاهراً الجبن والمسكنة، لأنه يرى أن ضعف الفريسة ومسكنتها لا تثير، إشفاق المفترس ورحمته، بل تزيد في شراسته، وتقوي شهيته للفتك والقتل والافتراس، لذا لم يسجل عليه طوال حياته أنه ضعف وهان واستكان أمام جبروت أصحاب الحكم والسلطان.

ولكن كيف استطاع أن يجعل من «بارلا» القصية البعيدة مدرسة
تشع منها أنوار «رسائل النور»...؟! ١٦

لكي نفهم هذا لابد أن أحدثكم عن شخصية «النورسي» القوية
المشعة... فالشخصية القوية - شأنها شأن طاقات الطبيعة وقواها -
مجموعة قوى وطاقات خفية غامضة، تُكْنِهُهَا النفس الانسانية، نحسُّ
أثرها وتأثيرها فينا وفي الآخرين، دون أن نعرف شيئاً عن ماهيتها
وكنهها. وقصارى القول فيها: إنها هبة إلهية، ومنحة ربانية، يمنحها الله
سبحانه وتعالى للصفوة من الناس - ومنهم النورسي - ممن رسم لهم
القدر أن يحتلوا مراكز الاشعاع في المكان الذي يوجدون فيه، وهي
تمثل الاستثناء من المكرور والعادي من الشخصيات.

فالشخصيات القوية من ذوي البناء المحكم المتين الذين يصعب
اختراقهم، يملكون قوى خارقة - تنبعث من ذواتهم، وتقتحم أقفال
القلوب والعقول، وهم بكتلهم الثقيلة في موازين الرجولة يشكلون
مراكز ثقل يشدون اليهم من يلتقونهم من الناس، فلا غرو أن يصحبوا
طاقات مشعة في المجتمع، يلتف حولهم الناس، ويخطبون ودهم،
وينصاعون لأمرهم، ولسان حالهم يقول:

إذا كان قد فاتنا أن نرقى رقيهم، فلا أقل من أن نقبس من عظمتهم،
وندين لهم بالمحبة والطاعة والولاء.

وهكذا انجذب الى الرجل من يخدمه ويقرأ رسائله، ويتلمذ عليه،
ويستكتب هذه الرسائل ويسيح في طول البلاد وعرضها، فيسقي
نورها ظمء الإيمان وجياع العقيدة والاسلام.

ولكن ما هو هدف «رسائل النور»؟ وما المحور الذي تتمحور حوله، وتتموضع إزاءه...؟ انه باختصار شديد «الانسان».. هذا الانسان الذي تريد له أن يدرك أن دنياه لا تقلُّ غرابةً عن آخرته، فكل شيء فيها غريب وعجيب ومعجز، إلا أن مداومة النظر للدنيا، والائتلاف الدائم بينه وبين اشياؤها، يجعله يفقد شداهة النظرة البكر، وقوة حدتها ونفاذها، وذكاء لمحاتها، الأمر الذي يدفعه للاستغراق في المألوف من دون إعمال العقل فيه، ظناً منه أن كل مألوف معلوم، وشتان بين أن نألف أو أن نعلم كما ينبه «النورسي».

وكما أن «الدنيا» موجودة يصدمنا وجودها، ونتحسسها بأحاسيسنا وعقولنا، فكذلك «الآخرة» موجودة، وهي ليست بأقلَّ حقاً ووجوداً من الدنيا، ولكن رؤيانا لها، وشعورنا بها - هنا في الدنيا - يكون بالروح الطاهر، والقلب المتبتل الخاشع، وهذا ما تسعى رسائل النور الى أن تمنحنا إياه.

وإذ كان «الانسان» هو لب الدنيا الذي تتوجه اليه رسائل النور بمعارفها، فإن الدنيا قشرته، أو بالأحرى إن الدنيا لا شيء، بينما الانسان كل شيء، ومآله الأخروي هو أعظم الاشياء، وأكثرها أهمية وخطورة.

فما يعتلج في نفوسنا من توق الى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا اكبر من كل دليل وأعظمه، كما يقول «النورسي».

لأن «الانسان» - كما هو معلوم - لا يشتاق الى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب؛ إن هذا الشوق هو عذاب الروح

المستطاب الذي يجعل الإنسان ينظر الى بشريته بشئٍ من الحزن لأنه سجين هذه البشرية التي كان مقدرًا لها أن توجد على هذه الأرض لتعاني الاغتراب، وتكابد عذابه، وربما الى هذا اشارة في قوله ﷺ ، وقد سئل عن سنته: (والشوق مركبي... والحزن رفيقي... وقرّة عيني في الصلاة...) لأنها - أي الصلاة - رسول أشواقه ﷺ الى الله تعالى ربّ ذلك العالم الأخروي البعيد، القريب، الذي نحسه في تجليه على أرواحنا بأنواره وأندائه في لحظات صفاء الروح، وفي أوقات استضاءة القلب بنور الله. كما أن لهذا العالم الغيبي امتدادات نسبية في عالم الشهادة - كما يقول النورسي - تظهر أوضح ما تظهر في الانسان، خلاصة هذا العالم، وأرقى مخلوقاته، فكياته - باطنه وظاهره - مرآة كبرى تعكس بنسبيتها شؤون الغيب المطلقة.

فوجود الانسان النسبي يرمز الى وجود مطلق،

وعلمه النسبي يرمز الى علم مطلق،

وقدرته النسبية ترمز الى قدرة مطلقة،

وإرادته النسبية ترمز الى إرادة مطلقة،

وهكذا، فكل ما هو نسبي من الصفات عند الانسان، يقابله ما هو مطلق فيما وراء هذا العالم.

وحيث أن الموجودات - حتى الجامد منها - مفضورة على حب الكمال، والارتقاء من الأدنى الى الأعلى، ومن المحدود الى اللامحدود، ومن النسبي الى المطلق، ولما كان الانسان أرقى هذه الموجودات من ذوي العقل والشعور، صار همه الاعتناق من سجن

النسبية اكبر همومه، وشوقه إلى المطلق اعظم أشواقه، كما يشير «النورسي» فكيف لا تعاني أشواق المسلم الغربية في هذا العالم الذي تحكمه النسبية، ويهيمن عليه السلب والموت والفناء والعدم...؟.

إذن فكيف الخلاص من برائن عالم السلب هذا...؟ وكيف النجاة من حبوسه الضيقة المحدودة...؟ ولماذا نموت ظامئين ونحن على مقربة من نهر الأبدية العذب...؟ ان الخلاص والنجاة - كما يرى النورسي - إنما يكون بالتعلق بشدة بأمراس الغيب، والاستمسك بقوة بحباله الممدودة إلينا، فباب الغيب العظيم المشرع لكل مشتاق وراغب إنما هو القرآن الكريم الذي يملك المداخل لجميع العقول البشرية على اختلاف نوازعها.

فالوقوف الدائم على مشارف عوالم القرآن سيجعلنا نبصر حبال الإنقاذ النورانية الممدودة إلينا لتتعلق بها بقوة، ونعض عليها بالنواجذ.. انه يخترق بنا أعماق الزمان الأبدي الذي لا نهاية له، ويطلعنا على ما يحتويه من صور الجلال والجمال ليزداد حبنا له، وشوقنا إليه.. فمن يحب الخلود ويسلك إليه سبيل القرآن يخلد.. ومن يحب البقاء ويتعلق قلبه بالباقي الأبدي الأزلي يذق حتماً وقطعاً طعم البقاء، كما يقول «النورسي».

كما أن للغيب صوراً جمّة، وتشكلات لا حصر لها في العوالم والأكوان، وفي الأحياء والجمادات.. فالقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة، ويعلمنا أنه التجلي الأعظم لصفة الكلام الإلهي المنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ، وأن الصفات الألهية الأخرى: القدرة، الحكمة، الإرادة، العلم، الحياة، لها تنزلاتها وتجلياتها على قلب

الكون . فالعوالم والأكوان خاضعة ومستسلمة لهذه الشريعة الكونية التي تعمل بصمتٍ وخفاء في الأشياء . فتقدم الانسان العلمي يتوقف على فهم دساتيرها ونواميسها، واكتشاف أسرارها كما يقول «النورسي» .

لذا غدا، إهتمام المسلم بالكون بديهياً، ورغبته في فهمه والتوغل في أسرارها من أوجب واجباته الإيمانية، لأنه بمقدار ما يجهل منه يكون جهله بربه، وبمقدار ما يجهل منه يكون جهله بعقله، وعلى قدر ما يفوته من العلم به يكون مقدار ضعفه وتأخره العلمي .

فالشريعة الكونية ينبغي لها أن تنزل عقل المسلم، وتسري في حسه جنباً الى جنب مع شريعة الكلام الألهي، أي «القرآن الكريم» ومن تداخل الشريعتين ونفاذهما في بعضهما وتفاعلهما داخل عقل المسلم ووجدانه، تولد حضارة الاسلام عن جديد كما يرى «النورسي» .

غير أنه ومنذ دخول العالم الاسلامي شتاء الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعد عقلاً حركياً فاعلاً، إنه في حالة استرخاء دائم، وجمود مستمر، بل هو مريض معتل لم يعد يستجيب للتحدي والاستفزاز، ولم يعد ذلك العقل المشدود دائماً، اليقظ الصاحي أبداً، المتهىء في كل وقت لالتقاط إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة، ولم يعد عقلاً مغامراً يستهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتى لكأنه يخاف الحقائق ويستهلها، فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تعد حياتنا الإيمانية وحدها مهددة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهدداً بالشلل والجمود .

و«رسائل النور» تسعى لكي تعيد إلى عقل المسلم صحوه الغائب، وتدير في مغاليقه مفاتيح الأفكار، وترجع لخلاياه الكسول الحيوية والنشاط، وتشحذ قدرته على دقة الملاحظة، وذكاء اللمحة، وسعة النظرة والخيال.

وهذه هي أشراط ولادة الفكر الإيماني الحي الذي بشر به «النورسي» وتحدث لطلابه عن إرهاباته وتباشيره.

غير أن المفكر الإسلامي الموعود والمرصود لمواصلة المسيرة التي بدأها «النورسي» لا يمكن أن ينجم من فراغ، أو يسقط من هواء، بل لابد له من أرض صالحة يستتبت فيها. . ولا أحسب أرضاً صالحة يمكن أن تنشق عن نبتة هذا المفكر الواعد مثل رسائل النور المفعمة بالمنقول الألهي، والمؤيد والمعزز بالمعقول الكوني، فطينة أرضها مزيج من الائتلاف الحميم بين الشريعتين الكونية والقرآنية، وحين يأتي هذا المفكر - وهو آت لا محال - فإن إحدى الحوادث الكبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين تكون قد ولدت، الأمر الذي يوجب على المسلمين الاحتفاء بمولده كما كانت قبائل العرب تحتفي بمن ينبغ فيها من شعرائها. و«النورسي» لا يرى شيئاً أشد سقوطاً، وأشنع انحداراً، من أن يتجرد رأي الانسان في هذه الخليقة من أي معنى الهني، لذلك فليس من شأننا نحن المسلمين - أو من شأن مفكرينا - أن نعقل حقائق الأشياء بالعقل المجرد وحده - كما يريدنا الغربيون أن نفعل - بل بالعقل المستضيء بالإيمان، وبالبصيرة المستنيرة بالقرآن. فحضارة الإسلام - كما بشر بها النورسي - لا تبنيها اليوم إلا عقول موسوعية كبيرة وعميقة، لا يقوى على اختراق حصونها الفكرية خارق أياً كان، ولا تنشؤها إلا

أرواح جبارة شامخة، تستعصي في سموها وجلالها على عادات الأيام، وفادحات الدهور، ولا يعلو بناؤها، ويرتفع شأنها، إلا بالإنسان المؤمن البصير الواعي الذكي اللّماح الذي ينذر حياته كلها من أجل أن يسهم في إقامة صرح هذه الحضارة ولو بلبنة واحدة.

والجمال والجلال هما جوهرها هذه الحضارة التي لها ميزتها وتفردا واختلافها عن سائر حضارات الأرض، فالجمال هو روحها، بينما الجلال هو جسمها.. الجمال هو بستانها، والجلال سياجها.. الجمال هو الحق والعدل والخير، وهو الرحمة والصدق والشرف والكرم والبروّة والبر والمعروف وكل المحامد والمناقب، أما الجلال فهو سيفها البتار الذي يحميها ممن يروم اختراق بستانها، والعبث بزهره وثمره.

وفي رسالته العجيبة «الاسم الأعظم» يبين «النورسي» آثار فاعلية أسماء الله الحسنى في الإنسان والكون والحياة، وآيات تجليها بمعانيها وصفاتها على الموجودات.

ويشير إلى أن إسميه تعالى «الجميل والجليل» يؤثران في الكون، فهو جميل تقطر ألوان الجمال من كل جزء من أجزائه، وصورة من صورته، وهو كذلك جليل مهيب يبعث الاحساس بالرهبة والروع والاستهوال ازاء كبره وسعته وامتداده.. وحضارة الاسلام انما تبنى على مثال الكون في جماله وجلاله.

ولأن «رسائل النور» هي فلذة من كبد الكون، وقطعة من فؤاده، ترى بعينه وتسمع بسمعه، وتعقل بعقله لذا فلا غرابة إذا ما رأينا الجمال والجلال يسريان جنباً إلى جنب في كلماتها وسطورها، فبينما تكون

مغموراً بفيض من جمال المعاني الإيمانية التي يتفجر عنها وجدان النورسي، حتى لتخال أنك بأزاء أديب كبير ذي روح شاعري، إذا به ينقلك فجأة وربما عبر سطر واحد الى عالم الجلال الألهي الذي يروعنا ويجعل قلوبنا تبادر الى السجود خاشعة على اعتابه.. وهكذا مهما قلبت من صفحات هذه الرسائل طالعتك فيها رقة في شدة، ورأفة في قوة، ورحمة في عز، وتواضع في شموخ، ولطف في متانة، وعقل في قلب، وقلب في عقل... وإنك لتحس بقلب «النورسي» الكبير وهو يترنم شجى ووجداً، وترى دموعه تفيض حزناً ولوعة على الانسانية المعذبة بعذاب البعد عن الله، إنه ليستقطر دموع النوع البشري على النوع البشري نفسه الذي سيواجه عذاب العدم في آخرة الوجود والبقاء، ما لم يتب ويعد الى الله تعالى. إنه أخو البشر، وشقيق الانسان، تُبكيه مأساته، أياً كان وفي اي مكان من هذه الأرض.

وهو حين يُذَكِّرُ الانسانَ الجحود بمآله المفجع في الآخرة، لا ينسى - في الوقت نفسه - أساس مهمته، الا وهي تحبيب الله الى خلقه، قبل تخويقهم منه، اي الجمال ثم الجلال.

فالجمال والجلال هما القاعدة الحضارية التي تنطلق منها «رسائل النور» لبناء المسلم الجديد المؤهل للقبول في صف نبلاء الفكر ممن تُودع بين أيديهم أمانة ارساء أسس الحضارة الاسلامية الآتية.

فلطف الجمال هما يحول بين «الأنا» في دواخلنا وبين الكبر والعجب والطغيان، وهيبة الجلال تُنهض «الأنا» من وهاد الضعف والسقوط والذلة والقنوط.. الجمال يغرينا بسمو الفكر، وشرف العدل، وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب. بينما

يفجر الجلال فينا ينبوعاً دققاً من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة
ويمنحنا الحمية والأنفة والاستعلاء على الجبن والخوف.

وما زال «الأنا» في الانسان المعاصر، هو العضلة الكبرى المستعصية
على الحل، وهو ما فتى في طغيانه أو انسحاقه يشكل سوساً ينخر في
انسانية الانسان، وقد أعيا علاجه الفلاسفة والحكماء، وحرار فيه
الاخلاقيون والتربويون. لأن الدواء الذي يقدمونه له هو من صنع
«الأنا» المريض نفسه، فيأتي معلولاً لا جدوى منه.

أما الدواء الذي تقدمه «رسائل النور» فهو مزيج من الجمال والجلال
الإلهيين، وهو موزون بميزان من رفع السماء ووضع الميزان، وخلق
«الأنا» في الانسان، وجعله مناطاً للتكليف والسؤال، وهو دواء علتة،
ويلسم مرضه، الذي يفي بحاجته، ويحفظ له دوام الاستقامة
والاعتدال، وباعتداله تعادل الدنيا، أما إذا فرط أو أفرط فعلى الدنيا
العفاء، لأن «الأنا» في الانسان منبع كل خير في العالم اذا اعتدل
واستقام، ومنبع كل شر في الدنيا اذا جنح وانحرف. واذا كان ما من
جميل الا ويمازج جماله مهابة الجلال، ووقار العظمة والكبرياء، وما من
جليل الا وله من الجمال نصيب، فكذلك فان كل ذي حياة - ولا سيما
الانسان - تشع من حياته معاني الاسماء الإلهية الحسنی، وصفاتها
الجميلة والجليلة، كما يرى النورسي.

وبهذا صار «الانسان» آية كبرى من آيات الله تعالى، لأنه يعكس
أضواء هذه الاسماء على ما يحيط به من الموجودات والأناسي، فيصبح
كل انسان مرآة أخيه، يبصر فيها نفسه، كما ورد في الحديث الشريف:
«المؤمن مرآة أخيه» ووجب ان نحصي اسماء الله الحسنی ونستقصي

فعلها وتأثيرها في أنفسنا لتتخلق بأخلاقها، ونحيا بصفاتنا ومعانيها،
ولعل الى هذا الاشارة في قوله تعالى ﴿ وفي انفسكم افلا
تبصرون ﴾ .

وحين نبصر، ونتعمق بأبصارنا في النفس الانسانية، نكتشف
دواعي القلق على الانسان في تقلب قلبه من النقيض الى النقيض . فقد
يكون على بساط الجمال، وفي حضرة أنسه، فإذا به يتحول بين عشية
وضحاها عن ذلك ليقع في قبضة الجلال وتحت هيبتة وسطوته .
فاستغراق النفس بالجمال لا يعني خلاصها نهائياً من جرثومتها الأمانة
بالسوء . كما أن طغيان هذه النفس، وانغمارها بالموبقات لا يعني
خلوها من أصل التقوى والصلاح .

فلربما استقام المنحرف، وانحرف المستقيم، والى هذا السر يشير
عليه بدعائه : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

فالنقائص والأضداد من سنن الله في موجوداته - كما يرى النورسي
- فالنهار يخفي في ضميره سواد ليل بهيم، والليل يطوي تحت جناحيه
اشراقات الضحى واضواء الظهيرة، وصقيع الشتاء يحتفظ في جوفه
ببذرة الربيع، وكل ضعيف يطوي في احشائه نطفة قوته، وكل قوي
تستتر فيه نبتة ضعفه .

فالنورسي يهيب بالضعفاء الا يستسلموا لضعفهم، ففي دواخل
ضعفهم قوة، عليهم ان يكتشفوها وينموها، ويحذر الأقوياء من الغرور
بقوتهم، ففي قوتهم عوامل ضعفهم التي ستوردهم موارد الهلاك في
يوم ما، وما نظنه شراً بقصر أنظارنا قد ينطوي على خير كثير لا نبصره،
وقد تكشف عنه الأيام في قابل الزمان .

وعلى ضوء هذه المقدمات يفسر «النورسي» الكثير من وقائع التاريخ الاسلامي، ويكشف عن أسبابها وأسرارها التي أفادت المسلمين رغم ما يبدو في ظاهر أمرها من كونها وقائع مأساوية كان ينبغي لتاريخ المسلمين ان يتنزّه عنها، حتى إنه ليرى؛ أن ما نجم من مذاهب الابتداع لا تخلو هي الأخرى - رغم باطلها - من حبة حق أو حبات، أو جزئية منه أو جزئيات، وبهذه الحبة أو الجزئية اعتقدتها أصحابها، وها انذا أنقل اليكم ما يقوله بهذا الصدد مخاطباً طالب الحقيقة والباحث عنها:

(يا طالب الحقيقة:

إن الشريعة تنظر الى الماضي والى المصيبة غير نظرتها الى المستقبل والى المعصية.. إذ تنظر الى الماضي وما وقع فيه من المصائب بنظر القدر الألهي، فالقول هنا قول الجبرية.

اما المستقبل والمعاصي فتتنظر اليهما بنظر التكليف الألهي، فالقول هنا قول المعتزلة.

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل عن تعميمها..).

والقدر - مهما اختلفت المفاهيم حوله - فهو ملح الحياة، فمن دونه تفقد الحياة طيب مذاقها في أفواه البشر، ومن غير القدر ومفاجآته، تستوي أيام الحياة وتتشابه أزمانها، ما كان منها، وما هو كائن، وما سيكون، ويصبح الماضي والحاضر والمستقبل لوناً حياتياً واحداً مملاً،

وصورة للعيش واحدة مضجرة، وبذلك يفقد الانسان اهتمامه بالزمن، وتضيع منه لذة معاناة التوجس والترقب لما يمكن ان يأتي به المستقبل من احداث السلب او الايجاب .

وهذا « الملح الغيبي » هو الذي يمنع بحر الحياة من أن يتوقف ويأسن ويتعفن، فلولا الاقدار لسكنت الحياة سكون الموت، وهمدت همود القبور، فمن صراع اقدار البشر واحتكاك بعضها ببعض، تتجدد شرارات الحياة، وتتوهج المجتمعات، وتنهض الدول، وتقوم الحضارات، ويجري التاريخ البشري نحو اهدافه وغاياته المرسومة والمقدرة.

فالتاريخ في مفهوم « النورسي » يصنعه رجل الساعة، وبطل الموقف الذي يمدده القدر بقوة خفية يستطيع بها أن يلوي عنق الاحداث ويسخرها في خدمة هدفه وغاياته.

وللنورسي قول في « القوة » قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، ولكن عندما نتأمله ونتعمق فيه، ونسبر غوره، نجد من أصدق أقواله، وأكثرها انطباقاً على الحق والحقيقة، وله عليه شواهد من التاريخ الاسلامي خاصة، والتاريخ الانساني عامة، فهو يرى أن القوى سواء كانت قوى عقلية أو نفسية او جسدية او علمية مادية، حتى لو بدت غير اخلاقية، فأنها تكتسب بعض خواص الحق، فمهما كانت استعمالاتها، وفي أي سبيل كان تسخيرها فهي تنطوي على خاصية من خواص الحق، وبهذه الخاصية تنتصر ولو كانت بيد الباطل الغشوم، والى هذا السر يرجع انتصار الباطل القوي على الحق الضعيف.

ورغم علمنا أن الحق أو الحقيقة - أية حقيقة - قادرة على الدفاع عن نفسها، وشق طريقها الى الحياة مهما كانت السدود والعوائق، الا أننا للأسف الشديد قد نشكل بعض هذه العوائق دون قصد منا.

فهناك فواصل حادة بين الحق الذي نؤمن به، ونرغب بالانتصار له، وبين قصور الجهد الذي نقدمه في سبيله.. بين القمة الشامخة التي يقف فوقها، وبين ضعف الأفكار التي نحاول ان نقدمها للآخرين من خلالها.. بين أن نعتبره موقفاً سياسياً محلياً نخوض به مضامير السياسة، وبين أن نعتقده موقفاً حضارياً عالمياً تقارع به أفكار العالم وحضاراته التي تغزونا وتريد تجميد حضارتنا وتحجيم أثرها وتأثيرها فينا.

فالتورسي منذ قيامه مرة أخرى في إهاب « سعيد الجديد » وهو يرى ان قضية الاسلام الملحة ليست قضية صراع سياسي يمكن ان يغلب فيه، أو أن يكون مغلوباً، إنما هو صراع حضاري رهيب لا يمكن أن يُغلب فيه إذا عرفه العالم على حقيقته واعتقده وآمن به.

لذا فهو يرى أن « اوروبية » التي تمثل قمة حضارة اليوم يمكن أن تخفي في رحمها جنين الاسلام اذا هي فهمته واستوعبته وان هذه الرحم ستنشق عن هذا الوليد يوماً ما ليخرج في احضان الغرب، وينمو ويكبر ويبلغ أشده.

فإذا كانت « أوروبية » - في إبان حضارتنا - قد آنست في الشرق ناراً عظيمة فقالت لأهلها:

(امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس او أجد على النار نارا) (نداء سبأ) اقبسوا، من نورها أقساماً ذهبت بهذه الأقباس

فأنارت بها عقول أذكىء أبنائها، فإذا بهذه القبسة الحضارية تنمو وتكبر وتبلغ من النضج ما يشاء الله لها أن تبلغ.. ثم تعود إلينا من أبوابنا المشرعة وتعرض لنا بسحرها ومفاتها.. فإذا بنا نعرف منها وننكر، فهي قريبة إلى نفوسنا في بعض جوانبها، وغريبة بعيدة عنا في بعضها الآخر.. نعرف منها روحها المغامر الطلعة، لأنه روحنا المفقود.. ونعرف منها شغفها بالمجهول، وشوقها إلى كشف الاستار عن المعارف والعلوم لأنه شغفنا وشوقنا المؤود.. ونعرف منها علومها في الحياة والفلك والطب والنبات والحيوان، لأن جذور هذه العلوم ممتدة في عقول الأفاذ من علماء حضارتنا.. ولكننا ننكر منها عقلها المغرور الجحود، وقلبها المتفسق، وجسدها الذي يغلي بالحسيات، وعقيدتها في التجسيد والتثليث.

تُرى أيمن ان يعيد التاريخ نفسه، وتعود «أوروية» الغارقة في وثنياتها من جديد تبحث في «اسلامنا» عن صفاء العقيدة في التوحيد والتنزيه..! هذا ما يؤمله «النورسي»، وهو يرى - أي النورسي - في خبر نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان، وأنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، إشارة إلى عودة المسيحية إلى أصول عقيدتها في التوحيد، جوهر الاسلام، وجوهر كل الأديان التي سبقته، وبذلك تستأنف حضارة التوحيد نهوضها من جديد.

فمن المعلوم أن «الدين» هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجر تاريخها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها وأخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتد ساعدها وعلا ضحاها ودلفت إلى ظهيرة عمرها جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها،

ويستحکم فيها، ويتحکم بها، وربما صار وثناً يتعبد له الناس من دون الله تعالى.. ثم تمضي في سيرها حتى تميل شمسها نحو الزوال ثم الغروب، فإذا بالعقل يتخلى عن عرشه، ويتركه للحس ليتربع فوقه ويصبح هذا الحس سيد العقل وسلطانه بعد أن كان خادماً له.

ولا يعني هذا التقسيم الاعتباري لأدوار الحضارات أن هناك حواجز وفواصل ظاهرة وحادة بين دور ودور. فقد تتداخل الأدوار بعضها ببعض، غير أن طابعاً عاماً يظل يميز الأدوار، ويدفعها بشارته، ويعطي كل جزء زمني منها صفته الغالبة عليه.

والدور الحسي الذي يطغي اليوم على حضارة الغرب، قد فجر حسيات الانسان الى آخر مداها وطاقاتها، وفجر مع ذلك حس الأرض والسماء، وأثار خفايا الارض بترابها ومائها وهوائها، فإذا بها تنزل وتلقي بأثقالها وأسرارها بين يديه ليبتني من عناصرها مدنيته الحسية الباردة المفتقرة الى دفء الروح وشفافية الدين والإيمان.

وقد واكب هذه الحسية أدبها وفنها اللذان يزينان للانسان الاستغراق حتى آخر حبة حس فيه في شهواته وملذاته.. ولعل ثمار هذه الحسية ترجع في جذورها الى ذلك التصور الحسي الشاذ للألوهية والربوبية في العقيدة التي يدين بها أبناءها.

غير أن للنورسي موقفاً من الحسية يخالف به من يرى أنها انتكاسة في النفس الانسانية لا ينبغي للانسان ان يهبط اليها، لأن الحس والشعور مترشحان عن الحياة بل هما خلاصتها، فليس إماتة الحواس وتعطيل وظيفتها هي طريق الانسان للارتقاء الروحي كما يرى البعض،

بل على العكس من ذلك يرى: أن الحسّ الانساني بأذواقه وألطفه ومسرّاته وآمته، إذا وعى وأدرك، وذاق وتألّق، وتهذب ورهف وثقّف، صار سبيل الانسان الى المعارف الإلهية وطريقه الى الارتقاءات القلبية والروحية، لأن ما من لطيفة من لطائف الانسان أو جارحة من جوارحه، الا ويمكن أن تصبح طريقه الى الله تعالى إذا أحسن توظيفها في الغاية المرجوة.

فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا والمسؤولية في الآخرة.

فالإسلام أو بالأحرى حضارة الإسلام إنما هي وحدة واحدة تبدأ بالعقيدة وتنتهي اليها، فالروح والعقل والحس، يتداخل بعضها في بعض وتمشي جميعها جنباً الى جنب في كافة مراحل تطورها، لذلك كانت الآخرة - بجنتها ونارها - بناء حي تتعذب فيها حواس الانسان او تتنعم، كما أن غالبية معجزات الأنبياء عليهم السلام معجزات حسية تتحدى أسمع الناس وابصارهم.

لأن النبي أو الرسول إنما يتعامل في إتيانه بالمعجزة مع مادة الكون المشاهدة والمحسوسة ففي خرقه لبعض النواميس والسنن الكونية ساعة الحاجة اليها ليس أمراً مستغرباً من إنسان هو جزء مهم من هذه النواميس والسنن ولكنه ليس حبيسها ولا سجينها، غير أن الكون هو سجين نواميسه، وحبيس سننه.

فالنبي او الرسول عليهما السلام قد يكسر بمعجزاته جانباً من هذه الأغلال والقيود التي تكبل الكون، فيستجيب لهذا الكسر أو الخرق -

شأن الانسان الحبيس - استرواحاً وتخفيفاً من بعض قيوده الثقيل ولو للحظة واحدة.

وهذه المعجزات وإن كانت قد أعطيت للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لتحدي أقوامهم، وتوكيد نبوتهم ورسالتهم، إلا أن فيها الى جانب هذا الهدف الأهم أهدافاً أخرى تنطوي - كما يرى «النورسي» - على اشارات علمية، وبشارات بمستقبل علمي زاهر ستحققه البشرية يوماً ما في تاريخها الطويل، كما أنها - أي المعجزات - ترسل للبشرية من مكانها وزمانها البعيدين حافزات لقواها العقلية كي تطور قدراتها العلمية، وتحاول اللحاق بقدر المستطاع الانساني بالنهايات التي حققتها المعجزات.

فإذا كان «النورسي» قد ربط هذا الربط الذكي بين المعجزة وبين العلم، إلا أنه يرى أن «القدرة» هي روح المعجزة وقوامها، بينما «الحكمة» هي روح العلم وقوامه، فالمعجزة تقع بالأمر الألهي: «كوني» فتكون، بينما العلم لا يأتي إلا بالجهد والصبر والعمل الانساني الدؤوب.

فالعلم من وجهة نظر «النورسي» يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته الكامنة في لغزه، والجارية في خفاياه، وهو جدير بالمؤمنين قبل غيرهم، لذا يجب أن يكون في كل طوبه من صرحه العظيم قلب مؤمن وحس مسلم، وعقل عابد، لا قلب كافر، ونفس ملحد، وقد آن لهم أن يكفوا، أن يكونوا من طالبيه لدى الآخرين، بل من صانعيه لانفسهم بأنفسهم، فهو الحق القوي الذي يحتاجونه اليوم حاجتهم الى الماء والهواء.. ولأن العلم هو النفس المنفرث من وحي الله، والمودع في

شأن الانسان الحيس - استرواحاً وتخفيفاً من بعض قيوده الثقال ولو للحظة واحدة.

وهذه المعجزات وإن كانت قد أعطيت للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لتحدي أقوامهم، وتوكيد نبوتهم ورسالتهم، إلا أن فيها الى جانب هذا الهدف الأهم أهدافاً أخرى تنطوي - كما يرى «النورسي» - على اشارات علمية، وبشارات بمستقبل علمي زاهر ستحققه البشرية يوماً ما في تاريخها الطويل، كما أنها - أي المعجزات - ترسل للبشرية من مكانها وزمانها البعيدين حافزات لقواها العقلية كي تطور قدراتها العلمية، وتحاول اللحاق بقدر المستطاع الانساني بالنهايات التي حققتها المعجزات.

فإذا كان «النورسي» قد ربط هذا الربط الذكي بين المعجزة وبين العلم، إلا أنه يرى أن «القدرة» هي روح المعجزة وقوامها، بينما «الحكمة» هي روح العلم وقوامه، فالمعجزة تقع بالأمر الألهي: «كوني» فتكون، بينما العلم لا يأتي إلا بالجهد والصبر والعمل الانساني الدؤوب.

فالعلم من وجهة نظر «النورسي» يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمتها الكامنة في لغزه، والجارية في خفاياه، وهو جدير بالمؤمنين قبل غيرهم، لذا يجب أن يكون في كل طوبه من صرحه العظيم قلب مؤمن وحس مسلم، وعقل عابد، لا قلب كافر، ونفس ملحد، وقد آن لهم أن يكفوا، أن يكونوا من طالبيه لدى الآخرين، بل من صانعيه لانفسهم بأنفسهم، فهو الحق القوي الذي يحتاجونه اليوم حاجتهم الى الماء والهواء.. ولأن العلم هو النفس المنفوث من وحي الله، والمودع في

كما أن دماغ الانسان - الشبيه بمجمع مركزي للبت والاستقبال السلكي واللاسلكي - هو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها، ويبثها ايضاً، فإن قلب الانسان كذلك هو محور لما لا يحد من حقائق الكون والمظهر لها، بل هو نواتها».

والنورسي في هذه التجربة الفريدة إنما يفتح الطريق لاحبة لمن يريد سلوكها، ويرسي معالم فكر وجداني كوني النظرة، إيماني الملمح، يمكن لكل أديب او متأدب او صاحب قلم أن ينهل منه، ويحذو حذوه، وينسج على منواله، في إثراء «أدب الإيمان» ومنحه الابعاد الكونية التي تعمق رسوخ قدمه، وترفع من علو صرحه، في هذا العصر الذي غدا الكون فيه موضع نظر الانسان، ومحل فكره، وحقل علمه، ومسار سفره، وساحة تجاربه؛ في طي الأزمان واختصار المسافات.

وقد استطاع النورسي أن يوظف بمهارة فائقة الملاحم الكونية، ودلالاتها الرمزية في تربية «الوجدان الإيماني» الذي يرى في هذه العلوم وتطبيقاتها بعض ما أوماً اليه الدين وأشار اليه منذ أيامه الأولى.

فترية وجدان المسلم، وتلويته بلون العصر الذي يعايشه من دون مسخه او استلاب أصالته، كان وما يزال من أبرز اهتمامات المفكرين والمربين منذ بواكير الاسلام الأولى،

وحتى يومنا هذا، وقد سجل التاريخ، اسماء جمهرة كبيرة من هؤلاء المربين في مختلف عصوره وأزمانه، كانوا قد أسهموا بقدر أو بآخر في تشكيل هذ الوجدان وتهيئته لمتطلبات زمانهم.

والنورسي شأنه شأن المربين الآخرين قد كرس معظم جهده لتربية وجدان المسلم في هذا العصر الكوني الذي يظلمنا، ويسيطر على اهتمامات العلماء والمفكرين وقادة الرأي على مختلف مناحيهم واتجاهاتهم، فهو يرفض للمسلم أن يحيا على هامش العصر، أو على حافته البعيدة منزوياً طلباً للسلامة والنجاة من تكاليفه ومسؤولياته، بل يريد له ان يحيا في قلبه، وفي الحشاشة من لبه، يتأثر به، ويؤثر فيه.

ونقطة الانطلاق في منهاج «النورسي» التربوي تبدأ من «الحياة» التي تتلبس الانسان، وكل شيء حي، مروراً بالكون، ووصولاً في نهاية المطاف الى خالق الكون والانسان: ﴿وَإِن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.

فالحياة في الانسان شيء جميل ومقدس، تكتسب قدسيتها من قداسة المانح والمعطي خالق الحياة، فاذا اقتنع الانسان بقداسة الحياة التي بين جنبيه، واعتقد نفاستها وعظمتها، وطهارة منبعها، حرص عليها، ولم يلوثها او يدنسها، ولم يفرط بها، أو يتهاون في شأن ترقيتها، او يحقرها ويهبط بها، أو يحسها عبئاً ثقيلاً يرغب - أحياناً - بالتخلص منها، أو ينزل بها منازل الحيوان، أو يجعلها في خدمة من يعطي فيها ثمناً أعلى، او يركسها وينحط بها الى درك الدنس والخناس والخسة والجريمة.

فالحياة - كما يصورها «النورسي» -: (هي خلاصة مترشحة من هذا الكون.. والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس فهو خلاصة الشعور).

فاذن الجهل بالكون يعني جهلنا بالحياة نفسها، كما أن معرفة أي جزء منه تستلزم معرفة شاملة بأسراره، مما يهيئ للانسان فرصة التعلم،

وهكذا يدخل دائرة التعلم إن لم يكن مؤهلاً ليصبح من مبدعي العلماء، الأمر الذي يدفع به إلى روح عصره غير بعيد ولا منكفي ولا هامشي على زمانه ووقته. ومع ذلك فإنه ينبغي ألا يغيب عن بالنا بأن «العلم» إنما يأخذنا إلى ما هو نسبي وتقريبي من الأشياء، فمزال العلم حتى هذه الساعة عاجزاً عن اكتشاف أصول الأشياء وحقائق كنهها وماهياتها، وإن كانت له اليد الطولى في اكتشاف علائقها بعضها مع البعض الآخر، إذ لا يوجد في العلوم ما هو مطلق الصحة، ففي الكثير منها اجزاء افتراضية، حتى أن القوانين العلمية نفسها ليست من الحقائق المطلقة.. غير أن النفس البشرية تسلك بنا سبيل المطلق على الدوام، فهي تبحث وتفتش عن «المطلق» الذي يملؤها عظمة وخشوعاً وجلاًاً..

ولا يتصورنَّ أحد - كما ينبه النورسي - أن البحث عن المطلق وانبعث الاشواق اليه، والتعلق به، من حيث كونه يشكل عنصراً مهماً من عناصر مكونات «وجدان المسلم» يعني الهروب من العقلي إلى «اللاعقلي»، أو الانسلاخ من المنطقي إلى «اللامنطقي» كما يريد أن يوهنا بعض المحسوبين على العلم والعقل.

فما من حقيقة دينية - إذا ما فحصت جيداً - إلا وتنطوي على عناصر عقلية، كما أن اشد الفلسفات عقلية تشتمل على كثير من العناصر الدينية إذا تعمقنا أصولها وأساسياتها. وفي الغالب ترى أنصار المذهب الوجداني يأتون بأدق البراهين العقلية كما هو مشاهد مثلاً عند «الغزالي» و «النورسي» وغيرهما.

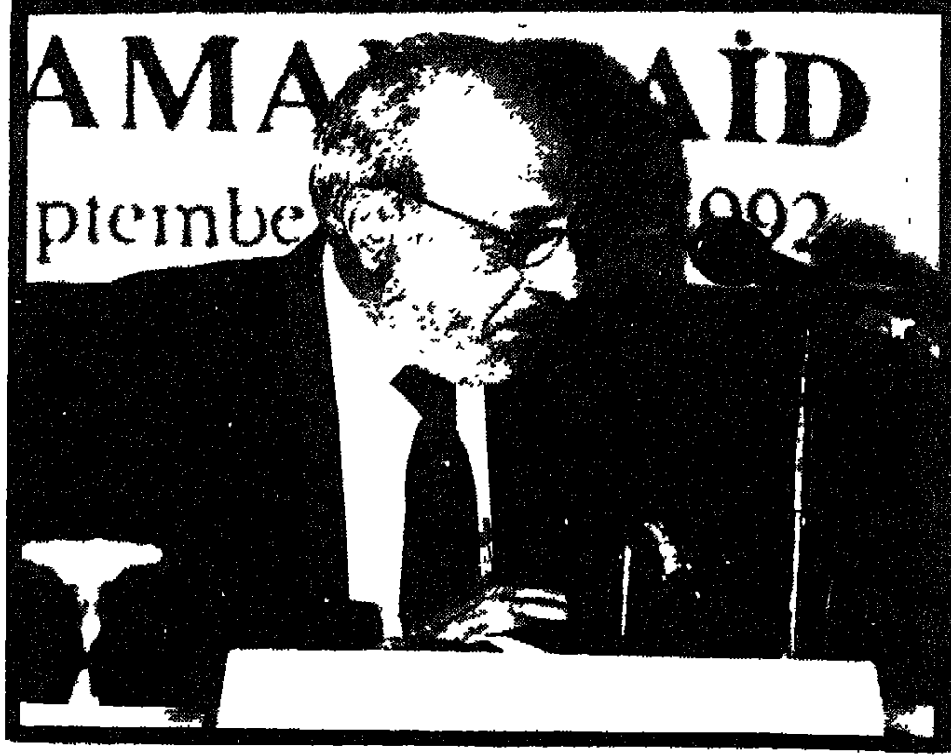
فإبعاد الدين عن الدائرة المنطقية والعقلية مسألة فيها نظر، فالدين الحق الذي لم تصبه يد التحريف، أو تدخله عناصر غريبة عنه، هو دين عقلي لا يجافي العقل، أو يناكف المنطق، وما «علم الكلام» الإسلامي في زمانه إلا مرحلة متقدمة من مرحلة «عقلنة الإسلام» وصورة من صور هذه «العقلنة» ما قبل عصر العلم الحديث، وقد أمكن تطوير هذا العلم – كما فعل النورسي – ليلاءم العصر العلمي والكوني الذي نعيش أيامه.

ونكاد نلمس صدق هذا الكلام فيما نضح عن فكر «النورسي» من «وجدانيات» ارتفع ببراهينها العقلية حدّ أكثر العقول منطقية، وسما بها سمواً يكاد يلامس صفاء اعظم الارواح الشاعرية شاعرية، ففي كلامه عن تدفق الحياة وسريانها الموسيقي المتناغم في أوصال الكون، وماتبثه من عزاء في نفوس المغترين بإيمانهم وعقيدتهم يقول مخاطباً طلبته:

(لو سكن طنين البعوض، وهدأ دوي النحل، وصمتت كل الاصوات، فلا تأسوا ولا تحزنوا، ولا تخمد أشواقكم، أو تضعف همتكم أبداً.. لأن الموسيقى الالهية العظيمة التي تجعل بنغماتها الكون في رقص وانتشاء، وتهز بأشجانها أسرار الحقائق، لن تسكن أبداً، ولن تهدأ... بل تستمر قويةً عاليةً هادرة تعلن عن مبدع الوجود الذي ينتهي اليه كل موجود).

أجل، إنها لن تسكن ولن تهدأ.. وتظل تهتف بكم ومعها صوت النورسي آتياً من وراء الغيب:

« انهض من جديد أيها المسلم العجوز .. شقَّ اكفان عجزك ..
وانفض عنك تراب قبرك .. انبعث فتياً ممتلئاً حياة وقوة وعزماً ايها الشيخ
الفاني .. عد أيها الغريب المتواري وراء الزمان فقد طال شوق الدنيا
اليك .. توارَ يا شتاء الروح .. وتفتح يا ربيع العقل .. وازدهري بأزهار
الايمان ايتها النفوس المجدبة .. تهللي يا غربة الاسلام .. وابتهجو
وابشروا يا خدام القرآن .. يا غرباء هذا العصر .. فرسولكم ﷺ قد قال
فيكم: (بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء).



احمد بهجت

- واحد من نجوم الصحافة المصرية والعربية، وكاتب له اتجاهه الاسلامي.
- يعمل نائباً لرئيس تحرير جريدة الاهرام القاهرية، وله عمود يومي شهير اسمه صندوق الدنيا، وهو عمود يقرأه يومياً مليون قارئ.. هو عدد قراء الجريدة.
- كتب ٣٥ كتاباً منها ما هو اسلامي بحث ومنها ما هو نقد اجتماعي ومنها ما هو ادبي ساخر وقد ترجمت له ٤ كتب الى اللغات الانكليزية والفرنسية والهندية والصربو الكرواتيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سعيد النورسي

الرجل والدور

في الدنيا ناس كثيرون يلعنون الظلام.. ولكن.. ماأشد ندره
القادرين على اضاءة شمعة وتبديد الظلام..

ولقد كان الصوفي التركي المجاهد المجدد سعيد النورسي واحدا من
هؤلاء القادرين النادرين..

لقد اختار رسائل النور اسما لمباحثه

كان يدرك اهمية النور في حياة البشر... وكان يعرف ان النور
الخارجي اذا كان لازما لحركة البشر، فان النور الداخلي لازم لحركة
الضمير الانساني والفؤاد.. وبغير هذا النور الداخلي لا يهتدى الانسان
لدوره على الارض، ولا يعرف له ربا في السماء..

ولد سعيد النورسي في قرية نورس احدى قرى خيزان التابعة لولاية
بتليس شرق الاناضول سنة ١٨٧٦ ميلادية.. وكان ابوه صوفياً ورعاً
يضرب به المثل في الامانة..

وكان الاب اذا عاد بمواشيه من المرعى ربط افواهها لكي لا تأكل
شيئاً من مزارع الآخرين..

واتجه الابن الى العلوم الدينية والمدنية ونبغ فيهما معاً واشتهر بذكائه
واخلاصه.. وقد ولد سعيد النورسي في عهد السلطان عبد الحميد
الثاني، اى في اواخر عمر الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، وعاصر
تكالب الاعداء وتزاحمهم للقضاء على هذه الدولة..

كان الحقد الاسود على الاسلام يحركهم، وكان شخص دولة
الخلافة هو الرمز الذى وجهت اليه سهام الحقد المسموم..

ورغم ما بذله السلطان عبد الحميد لىبقى دولة الاسلام على قدميها
خلال ٣٣ سنة، الا ان المؤامرة كانت احكم من ان تترك دولة الخلافة
تحميا، وكان اعوان الغرب والدوائر الاجنبية قد زرعوا عملاءهم باحكام
في قلب الدولة، وكان كل شئ مهياً لاسقاط رجل أوروبا المريض، وهو
الاسم الذى اطلقه الغرب على السلطان عبد الحميد ودولة الخلافة التى
يمثلها ويرمز اليها.. ولم يستطع السلطان رغم نيته الطيبة ان يحول دون
وقوع المؤامرة وسقوط دولة الخلافة.. او يحفظ اسمه من التشويه الذى
شوهته له دعاية الغرب. ومن هذا الجو الدرامى المشحون ولد سعيد
النورسي فحمل هموم الامة وساهم في تنويرها.

كان الرعى لاينقص سعيد النورسي، كما كانت الشجاعة صفة من
صفاته النادرة التى التصقت بشخصيته وصارت جزءاً متمماً
لشخصيته..

من دلائل وعيه وشجاعته ما كان من أمره مع العريضة التى قدمها
للسلطان عبد الحميد، وهى عريضة طالب فيها بفتح المدارس التى تعلم
العلوم الرياضية والطبيعية والكيمياء، الى جوار المدارس الدينية في شرق
الاناضول، حيث يخيم الجهل والفقير على سكانه..

وقد اعجب السلطان بوعيه واستدعاه، وخلال هذا اللقاء انتقد سعيد النورسي نظام الامن والاستخبارات بقصر يلدز حيث كان يعيش السلطان، الامر الذي اثار نقمة حاشية السلطان التي لا تمثل فكرة السلطان فحولوه الى محكمة عسكرية..

وفي هذه المحكمة تكلم بجرأة كبيرة، وتحدث عن السلطان بوصفه السلطان المظلوم، وكان قصده انه مظلوم لان حاشيته وكثير من معاونيه لا يفهمونه ولا يحاولون خدمته بل ويخربون افكاره... واحالته المحكمة الى الاطباء الذين احواله بدورهم الى مستشفى طوب طاش للمجانين، ثم افرج عنه بعد ان ثبت انه اعقل من اطبائه وسجانيه، واستدعاه وزير الداخلية ودار بينهما هذا الحديث :

قال الوزير: ان السلطان يخصك بالسلام، مع مرتب ألف قرش «عشر جنيهات»

بديع الزمان: لم اكن ابدأ متسول مرتب.. ولن اقبله ولو كان الف ليرة، انتم تعرضون عليّ رشوة لأصمت.. ولن أصمت.

قال وزير الداخلية: انك بهذا ترد الارادة السلطانية، والارادة لا ترد.

قال بديع الزمان: اننى ارد لكى يستاء السلطان ويستدعيني، وعندئذ اقول له قولة الحق..

قال الوزير: ان العاقبة لن تكون سارة.

قال بديع الزمان: تعددت الاسباب والموت واحد.. لكن اعدمت فسوف ارقد في قلب الامة، اننى اريد ان اوقظ ابناء الامة، وانا افعل

ذلك بوصفى فرداً من هذا البلد، وليس قصدي ان اقتطف من ورائه مرتباً.. اننى معذور عندما ارفض المرتب .

قال وزير الداخلية: ان ما ترمى اليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسته في مجلس الوزراء حالياً.

قال بديع الزمان: اذن لماذا يتأخر نشر المعارف، ويستعجل في امر المرتب، لماذا تؤثرن منفعتى الشخصية على المنفعة العامة للامة؟

حين كان سعيد النورسى في الثلاثين من عمره، زار استانبول في هذه الفترة « الشيخ بخيت المطيعى » مفتى الديار المصرية.. و اراد علماء استانبول الذين عجزوا عن الزام النورسى بحجتهم، ان يقابل الشيخ هذا الشاب التركى الذى اعياهم قياده..

وقد حدث اللقاء، وكان السؤال الذى وجهه الشيخ المطيعى هو التالى:

– ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية، وماذا تقول في مدينة اوربا..

قال سعيد النورسى: الدولة العثمانية حبلى حالياً بجنين اوربا وستلد يوماً ما، اما اوربا فهى الاخرى حبلى بجنين الاسلام وستلد يوماً ما. وامام هذا الجواب الموجز العميق قال الشيخ بخيت:

– اننى اوافق على كلامه، وانا احمل هذا الرأى نفسه.. ولا معنى للمناظرة مع هذا الشاب..

والحق ان بديع الزمان سعيد النورسى عاش حياة صعبة، فالى جوار عطائه في الدروس وجهده الذى كان يبذله فيه، فقد ظل طوال حياته

هدفاً لمطاردة السلطة، او هدفاً لمحاكمات عديدة.. وحكم عليه
بالاعدام اكثر من مرة، وكانت عناية الله تعالى تنقذه في اللحظات
الاخيرة..

ولم يكن النورسي يتردد في قول الحق حتى في أخرج الظروف..
كان خورشيد باشا الحاكم العسكري يحاكمه بتهمة عقوبتها
الشنق... قال له:

— انت ايضاً تدعو الى تطبيق الشريعة.. الاتعرف ان من يطالب
بهذا يشنق..

وقف النورسي وقال للمحكمة كلاماً ختمه بقوله:

— لو ان لى الف روح لما ترددت ان اجعلها فداء لحقيقة واحدة من
حقائق الاسلام.. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل ايام
الاستبداد، اما الآن فانها تعادى الحياة ذاتها، وما دامت الحكومة هكذا
فليعش الجنون وليحيا الموت وللظالمين عاشت جهنم..

ولقد كانت حياته سلسلة من المحاكمات والنفي والابعاد وتحديد
الاقامة.. وكانت جريمته الواحدة التي حوكم عنها عشرات المرات انه
رجل يدعو الى الله، ويدعو الى ان يكون الاسلام حاكماً في قلوب
الناس، وان تكون شريعته قانوناً مطبقاً في الحياة...

ولقد كان هذا الحق الطبيعي في هذه السنوات هو اخطر تهمة يمكن
ان توجه لانسان بعد ولاية مصطفى كمال اتاتورك..

وفي هذه السنوات الحالكمة في حياة تركيا، الغيت الخلافة،
والغيت قوانين الشريعة واستبدلت بالقوانين الاجنبية. والغيت الحروف

العربية واستخدمت بدلاً منها الحروف الاتينية – حتى يفصل النظام بين الناس ومنابع شريعتهم في لغتها العربية – وتحول الاذان من اللغة العربية الى اللغة التركية، واصبح محرماً على الناس ارتداء ملابس الشيوخ، وتم قهر الناس على لبس الملابس الافرنجية بالقبعة.. واعلنت علمانية الدولة.. وبدأ اضطهاد المشايخ ورجال الدين، واصبح الامر بالرغبة في تطبيق الشريعة الاسلامية جريمة كبرى تتصل بأمن الدولة العليا ولها عقوبتها وهي الشنق.

في هذا الجو المسموم تم حذف دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات الخالق.. والرب.. والله جل جلاله من كتب المدارس، ووضعت بدلاً منها كلمات الطبيعة والتطور والوطنية والقومية..

كان الهدف هو محو مفهوم الاله ومحو فكرة الخالق من الاذهان، واصبحت النظرة الى المتدينين تعتبرهم جماعة من الافاقين الذين يصدقون في وجود شيء وراء الطبيعة..

سنة ١٩٣٢ نشرت في استانبول بتركيا دائرة معارف الحياة، ماذا كتبت دائرة المعارف هذه – او بمعنى اصح دائرة الجهالات – تحت كلمة لفظ الجلالة «الله»..

كتبت دائرة المعارف التركية في عهد العلمانية تقول «ان الفكرة التي تريد الاديان الموجودة حالياً ان تبثها هي ان الله واحد، وانه هو الذي خلق الكون، ولكن التقدم العلمي بدأ يوضح لنا شيئاً فشيئاً ان هذه الفكرة باطلة، وانه لا وجود لشيء اسمه «الله»، وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين اوساط المثقفين».. هذا ما كتبه دائرة المعارف التركية..

في هذا الجو الكئيب كان الاسلام يتعرض لحرب علنية تشنها الحكومة بكل اجهزتها.. وفي هذه السنوات الحالكة السواد، اشعل سعيد النورسي شمعة لتبديد الظلام، وقال في تقديم نفسه « اننى لست شيخ طريقة، فالوقت الان ليس وقت طرق صوفية، بل وقت انقاذ الايمان ». لقد كان انقاذ الايمان هو القضية التي لا تتحمل التأجيل لحظة واحدة.

بدأ سعيد النورسي كفاحه من اجل انقاذ الايمان .. ومر في كفاحه باكثر من مرحلة كما يحدثنا هو نفسه في كتاباته ..
في المرحلة الاولى حاول خدمة الاسلام عن طريق الخوض في غمار السياسة ..

كان يسبح ضد التيار ويحاول صد التيارات المعادية للاسلام عن طريق العمل السياسى، قابل السلطان عبد الحميد ونصححه، وكتب المقالات السياسية في جريدة وولقان، وحاول التأثير في رجال الاتحاد والترقى لدفعهم الى الجانب الاسلامى، وحاول في انقرة التأثير في اعضاء مجلس النواب وتقوية الجانب السياسى فيهم، وتعرض للقبض والتحقيق والمحاكمة اكثر من مرة ..

ثم ادرك بذكائه وحكمته استحالة خدمة الاسلام بالدخول في معترك السياسة ودهاليزها وصراعاتها العقيمة ..

لقد اغلقت المدارس الدينية وتحولت مئات المساجد الى مخازن او اسطبلات او مراكز للشباب .. وهكذا اطلق سعيد النورسى الحياة السياسية وقال كلمته الشهيرة في ذلك « اعوذ بالله من الشيطان والسياسة ».

وقد لاحظ سعيد النورسي خلال خوضه غمار العمل السياسي انه في حاجة الى استخدام الادوات المتاحة، وهم البشر، وكان هؤلاء البشر على قدر من الانتهازية. كما كان ايمانهم ناقصاً، وتساءل سعيد بينه وبين نفسه هل يمكن خدمة الاسلام باناس لا يملكون ايماناً كاملاً، هل يمكن خدمة الاسلام بنفوس لم تعرف الاسلام جيداً ولم تتشرب به..

الا يكون ذلك اكبر تشويه لصورة الاسلام واكبر اذى يمكن الحاقه به..

ان هذا ما يريده الغرب المتربص بالاسلام..

بهذه النظرة العميقة والمتأنية، وبعيداً عن الحماس والارتجال، ادار ظهره لعالم السياسة، وكتب يقول عن نفسه «لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يزيد على عشر سنوات، لعله يخدم الدين والعلم عن طريقها، ولكن محاولته ذهبت ادراج الرياح..»

لماذا.. لان اغلب السياسة خداع واكاذيب، وهناك احتمال ان يكون الشخص آلة بيد الاجنبي دون ان يشعر، ومضى سعيد النورسي يعدد اسباب تركه للعمل السياسي وختم كتابته بقوله.. لاجل هذا كله فان سعيداً القديم قد ترك السياسة ومجالسها الدنيوية كما ترك السيجارة وقراءة الجرائد.

صرف سعيد النورسي همه لاملأ رسائل النور على تلاميذه ومحبيه..

كانت الرسائل في جوهرها محاولة ناجحة للدعوة الى الله، عن طريق ايقاظ القلب وتنويره بالاسلام..

وتبدو رسائل النور رسائل عادية لشرح مفاهيم الاسلام، والدعوة الى الله، ولكنها في حقيقتها تفسير قيم للقرآن الكريم، وهو تفسير تجتمع له خصائص لا تجتمع لغيره من التفاسير..

اهمها ان القرآن الكريم كان هو وحده استاذ النورسى ومرشده، فلم يغادره الى كتاب آخر، ولم يتخذ غيره مصدراً.

ولقد قيل: كيف تعتبر رسائل النور تفسيراً للقرآن الكريم مع انها لا تشبه التفاسير المتداولة؟

ان الجواب على هذا السؤال: ان التفسير نوعان:

الاول: هو تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة.

الثاني: هو اثبات الحقائق الايمانية للقرآن الكريم اثباتاً مدعماً بالحجج والبراهين.. ولقد كان تفسير النورسى من النوع الثانى.

ان القرآن الكريم بحر لا تنتهى كنوزه.. ان لكل تفسير عصره، وكل عصر يقدم تفسيره طبقاً لعلوم العصر واكتشافاته ورحابة معرفته..

ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾.

ان فهم القدماء وتفسيرهم لهذه الآية، لا يشبه فهم المحدثين لها. ان فهم المحدثين والمعاصرين اعمق.. لقد كشف التقدم في علم الفلك ان الشعاع الضوئى لبعض النجوم يستغرق اربعة الاف سنة ضوئية لكى

يصل الى الارض، وهذا يعنى ان الشعاع سوف يسير بسرعة ٣٠٠ الف كليومتر في الثانية لمدة أربعة الاف سنة.

هنا نفهم عظمة القسم الالهى بمواقع النجوم.. وهنا يتضح معنى الآية عند المعاصرين اكثر من اتضاحه عند القدماء...

وهكذا عكف سعيد النورسى على املاء رسائل النور، واستمر في مهمته حتى دخل في المرحلة الثالثة من نشاطه حين بدأ تدريسه الجماعى لرسائل النور.. اضافة الى قيامه بنصح السياسيين ورجال الحكم باتباع الاسلام، دون ان يدخل بنفسه في معترك السياسة.

* * *

في العشرينات من هذا القرن..

نشبت ثورة في الاقاليم الشرقية في تركيا بقيادة الشيخ سعيد پيران، وكان هذا زعيماً بارزاً في العشائر الكردية..

وكانت هذه الثورة موجهة ضد سياسة مصطفى كمال اتاتورك الذى اثار نقمة الشعب ضده بسبب موقفه المعادى للاسلام..

وقبيل اندلاع الثورة ارسل الشيخ سعيد پيران رسائل الى الاستاذ سعيد النورسى يطلب منه الاشتراك معه في الثورة ضد حكومة انقره، فرفض لعدم رغبته في اراقة دم المسلمين الابرياء في حركة لا امل فيها.. وجرى بينه وبين حسين باشا رئيس احدى العشائر الكردية هذا الحوار:

حسين باشا: اريد ان استشيرك في امر، ان جنودى حاضرون والخيول موجودة وكذلك الاسلحة والذخائر.. وانا انتظر امراً منكم.

سعيد النورسي: ماذا تقول.. ومن ستحارب؟

حسين باشا: سنحارب مصطفى كمال

سعيد النورسي: من هم جنود مصطفى كمال؟

حسين باشا: ماذا اقول.. انهم جنود!!

سعيد النورسي: ان جنوده مسلمون من ابناء هذا الوطن، هم اقرباؤك واقربائى، من تقتل..ومن يقتلون.. فكر وافهم.. انك تريد ان يقتل الاخ المسلم اخاه المسلم.

حسين باشا: الموت افضل من هذه الحياة...

سعيد النورسي: وما ذنب الحياة.. اذا كنت قد مللت حياتك، فما هو ذنب المسلمين المساكين؟

حسين باشا: (حائرا) لقد أفسدت عزيمتى ورغبتى، كيف اقابل عشيرتى التى تنتظر عودتى.. ماذا يكون رأيهم في، انهم سيظنون اننى جنت.. لقد ضعيت قيمتى بين عشيرتى.

سعيد النورسي: لايهم ان تكون قيمتك صفراً عند الناس، مادمت مقبولاً عند الله تعالى

حسين باشا: نحن نريد تطبيق الشريعة الاسلامية

سعيد النورسي: اتريد تطبيق الشريعة الاسلامية.؟ ان تطبيق الشريعة لا يكون بهذه الطريقة...

لم يكن سعيد النورسي يرغب في عدم اراقة دم المسلمين فحسب، وانما ايضا كان لا يثق بهؤلاء الاشخاص ومدى وعيهم الاسلامى ومدى قدرتهم على تمثيل الاسلام..

ولهذا السبب الجوهري ورد في حوارهِ مع حسين باشا قوله:

– يا حسين باشا.. لو قلت لك تعال مع جنودك الثلاثمائة لتطبيق الشريعة، فان جنودك وهم طريقهم الى هنا، سيقومون بنهب وسلب وقتل كل من يمرون عليه في الطريق، وهذا مخالف للشريعة، كيف تطبقون الشريعة عن طريق مخالفتها.

* * *

كان وعي سعيد النورسي بالعدل عميقاً، ومن هنا كان وعيه بالاسلام عميقاً... لم يكن على استعداد لان يظلم تحت اي شعار من شعارات الانصاف او العدل، كان يريد ان يكون شعاره منطبقاً مع أفعاله، وان تكون اقواله هي الترجمة الفعلية لافعاله..

ورغم رفضه الاشتراك في حركة الشيخ سعيد پيران، واقناعه رؤساء العشائر الكردية بعدم الاشتراك في قتال جنود مصطفى كمال، رغم ذلك لم يسلم موقفه هذا من غضب حكومة انقره..

وهكذا ارسلوا اليه مجموعة من الجنود والضباط لاعتقاله.. ومن هناك نقل الى استانبول.. ثم عاد ينقل الى مدينة بوردور.. ثم الى مدينة اسبارطة. واستغل الاستاذ سعيد النورسي هذه الفترة في تأليف رسائل النور.. وهي رسائل كانت تستنسخ باليد، ويتداولها الطلاب والمحبون، وتنتشر وسط الناس انتشار النار في الهشيم..

وبعد ان كانت الحكومة تتبعه وحده.. بدأت تطارده وتطارده معه رسائل النور.. حدث هذا في حياته وبعد وفاته..

استمرت مطاردة رسائل النور، واصبح من المشاهد المتكررة والمألوفة مشاهد المحاكمات التي تقيمها الدولة لطلاب رسائل النور على اختلاف نوعياتهم وتخصصاتهم.

وعبثاً حاولت الحكومات المتعاقبة ان تطفى هذه الشعلة التي اشعلها سعيد النورسى واستمدها من القرآن الكريم.

في صباح يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٦٠، الموافق للخامس والعشرين من ايام شهر رمضان سنة ١٣٧٩.. لم ينهض الاستاذ سعيد النورسى لصلاة الفجر، وكشف تلاميذه الغطاء عن وجهه ليعرفوا الحقيقة..

لقد انتقل الاستاذ الى الرفيق الاعلى..

كان الاستاذ في أورفة..

وانتشر الخبر فيها فتجمهر الناس آلافاً حول الفندق الذي يسكن فيه، وبدأ سيل من وفود المعزين يتقاطر على المدينة.. وانهمر المطر رذاذاً وهم يشيعون الاستاذ الى مثواه الاخير في مقبرة «أولو جامع»..

لم يكن هذا المثلوى هو المثلوى الاخير، فبعد شهرين من وفاته، وقع انقلاب عسكري اطاح بالحزب الديمقراطي وسيق اعضاء الحكومة الى المحكمة التي سميت بمحكمة الدستور، واعدمت هذه المحكمة رئيس الوزراء عدنان مندريس واثنين من وزرائه، وحكمت على الباقين بالمؤبد والسجن.. وبدأت الحكومة الجديدة في مطاردة التيارات الاسلامية في تركيا ومنها حركة طلاب النور..

بعد مرور خمسة اشهر على وفاة سعيد النورسي، استدعى شقيق
الاستاذ الى الوالى حيث خاطبه الجنرال جمال تورال قائلاً:

– ان زواراً عديدين يأتون لزيارة قبر شقيقكم، ولما كنا نعيش في
ظروف دقيقة، رأينا ان ننقل رفات شقيقكم – بمعاونتكم طبعاً – الى
مكان آخر.. نرجو ان توقع هذه الورقة.

رفض شقيقه في البداية، ولكنهم اجبروه على توقيع الورقة، واتجهوا
نحو طائرة عسكرية الى قبره..

وهناك حفروا قبره، واخرجوا جثمانه ووضعوه في تابوت، وحملوا
التابوت الى طائرة عسكرية ذهبت به الى مدينة اسبارطة، وهناك دفنوه
في مكان لا يعرفه احد..

هذه قصة مجاهد مسلم عاش ٢٨ عاماً من عمره في السجون
والمنفى، ولكنه استطاع وحده – بتوفيق من الله وفضل – ان يهز تركيا
من ادناها الى اقصاها وان ينطلق خارجها، وان يقذف الرعب في
قلوب اعداء الاسلام، وان يحمل بيده شعلة من النور في عصرنا، وان
يترك مدرسة تحمل النور وتبدد به ظلام الحياة.



الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- استاذ بقسم العقيدة والفلسفة. بكلية أصول الدين جامعة الأزهر. ومعار حالياً للعمل أستاذاً بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر..
- له مؤلفات تزيد على خمسة وثلاثين كتاباً، طبعت في مصر والسعودية وقطر وسوريا ولبنان.
- عضو اتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية.
- وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- وعضو مؤسسة الحضارة بالمملكة الأردنية الهاشمية.
- يكتب بحوثاً ومقالات لأكثر من عشرين مجلة وصحيفة. وله برامج إذاعية وتلفزيونية في دول الخليج.
- شارك في عدة مؤتمرات عالمية.

الإمام بديع الزمان سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان

لقد ظهر سعيد النورسي في فترة حرجة.. كانت أحوج ما يكون إلى الإمام سعيد. لتنمية الإحساس بالحياة، والقدرة على الإشباع العاطفي البناء، والمساهمة الفعالة في ترسيخ الأيمان.

وسعيد النورسي ولد في قرية «نورس» قريبةً من بحيرة «وان» شرقي تركيا عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م. ومن هنا اكتسب لقبه: «النورسي».

وسعيد النورسي ولد من أبوين كريمين فاضلين.. فقد كان والده الشيخ «ميرزا» ورعاً، يضرب به المثل في التقوى، والصلاح.. وقد نقل عنه: «أنه لم يذق حراماً، ولم يطعم أولاده إلا من حلال» ومما يذكر أن أمه «نورية» كانت كذلك قمة في الورع. وينقل عنها أنها قالت: «ما أرضعت أطفالي إلا وأنا على طهر ووضوء».. في هذا البيت الذي يسوده الإيمان، وفي ظل هذه الأسرة الكريمة.. ترعرع سعيد النورسي ونشأ. وبعد سن الطفولة انخرط في سلك طلب العلم، في المدارس الدينية، وهي مؤسسات للتعليم العالي. يمكن اعتبارها مكافئة أو مناظرة للجامعات أو الكليات أو معاهد الدراسات الإسلامية المعاصرة..

وقد اكتشف العلماء والمدرسون الذين أشرفوا على تعليم سعيد.. أن سعيداً يتمتع بمواهب فائقة. فقد أكرمه الله، بذاكرة قوية وحادة، تمكنه من استذكار القطع العربية الصعبة، واستظهارها في وقت قصير جداً.

ومما يروى في هذا الصدد.. أنه كان يستظهر عدداً كبيراً من المراجع الإسلامية الشهيرة.. كما كان يتمتع بقوة ادراك حاد. ساعده ذلك على أن يسير مسافات كبيرة، في مجال العلوم، في مدة زمنية وجيزة. تأخذ من الآخرين سنوات طويلة لدراستها.. ومن ثم استحق أن يطلق عليه اسم: « بديع الزمان »..

لقد سطعت شخصيته ببوارق النبوغ والذكاء، منذ حداثة سنه، رتقى العلوم الإسلامية، على أشهر علماء عصره، وتبحر في هذه العلوم بسبب هذه الشخصي، ونال إجازته العالمية. وهو ابن أربع عشر سنة.

وقد شغفته العلوم الحديثة، واستأثرت بإهتمامه، فانكب على دراستها منذ سنة ١٨٩٣م في « وان » فدرس الرياضيات، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، وغير ذلك من علوم، وألف في البعض منها.. ولما عين عضواً في أعلى مجلس علمي في الدولة العثمانية، وهو: « دار الحكمة الإسلامية » ألف في تلك الفترة، نحو أحد عشر مؤلفاً، حول العقيدة وقضايا الإيمان.

وعندما تعرضت الأمة الإسلامية لتكالب شرس، أدرك سعيد النورسي: أن ميدان الجهاد بالنسبة له، قد انحصر في تربية النفوس على الإيمان.

- تربية تجعل الإنسان ايجابيا. يعيش في حركة فكرية، ونفسية، وجسدية، بناءة بعيداً عن السلوك التخريبي.
- تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمي فيه القدرة على الإنتاج، والإبداع. بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.
- تربية تعد الإنسان إعداداً إنسانياً ناضجاً لممارسة الحياة، بالطريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام. لأن الحياة في نظر الإسلام: عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس في الخيرات.
- تربية تجعل الشخصية الإسلامية، شخصية متزنة، لا يطغى على موقفها الإنفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادي، ولا الانحراف الفكري، المتأتي من سيولة العقل وامتداد اللامعقول.
- تربية تبني الإنسان على أساس وحدة فكرية، وسلوكية، وعاطفية، متماسكة، على أساس من التنسيق، والتوافق الفكري، والعاطفي، والسلوكي، الملتزم الذي لا يعرف التناقض، ولا الشذوذ.
- تربية تجعل الإنسان يشعر دوماً أنه مسئول عن الإصلاح. وأنه يجب عليه أن ينهض بمسئولته، ويقود نحو شاطئ العدل والسلام.
- ومما يكاد أن يكون معروفاً. أن أخطر ما تتعرض له الأمة، هو هدم شخصيتها الإسلامية، هدماً عقدياً، وثقافياً، وسلوكياً، وعاطفياً..
- ولعل طبيعة الهدم، لم تنشأ إلا من جراء، انهدام الشخصية الإسلامية. وما أعقب ذلك من غياب الروح الرسالية، التي تتدفق بالحركة نحو الكمال، وتشع بالرشد والهداية، ولهذا نجد أن الإمام سعيد النورسي، ينكب على إملاء «رسائل النور» على طلابه

ومحبيه. ورسائل النور جاءت تضع العلامات المضيئة في الطريق.. لتكون الكلمة أداة بناء، تساهم في صنع الخير، وإشاعة الود، والمحبة، بين الناس، ولما كان الإمام سعيد النورسي يدرك تماماً أن المبادئ الإسلامية بمفاهيمها الأساسية، ومناهجها التربوية، تصنع شخصية متميزة. لها سماتها، وتوجهاتها، وغاياتها الخاصة التي تميزها بوضوح. عنى في «كليات رسائل النور» بهذه المبادئ.. ولما كانت الشخصية الإسلامية تتميز:

– بالاتجاه العقلي.

– والتوجه المستمر نحو الكمال.

– والتزوع القيادي.

– والايجابية.

– والاتزان.

– والالتزام.

– والإحساس الإنساني.

فإن الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وضع في سائر مؤلفاته ورسائله. كل ما من شأنه، أن يكون أساساً، للشخصية الإسلامية، وقواعد يشاد عليها وجودها، وتبنى عليها كل مظاهر تحققها وتجسدها..

محاسن الإيمان:

في المبحث الأول، من الكلمة الثالثة والعشرين. من مجموعة الكلمات من «كليات رسائل النور». نجد أن بديع الزمان يقول: «نبين من آلاف محاسن الإيمان خمسة محاسن فقط في خمس نقاط»:

– النقطة الأولى: إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين.
لأن الإيمان انتساب»

– النقطة الثانية: أن الإيمان ينور الكائنات أيضاً. وينقذ الزمان
الماضي والمستقبل من الظلمات.

– النقطة الثالثة: ان الإيمان نور وقوة.

– النقطة الرابعة: ان الإيمان يجعل الإنسان إنساناً.

– النقطة الخامسة: أن الإيمان يقتضي الدعاء» (١)

ولا يخفى على أحد، أن هذه المحاسن، التي جاءت في خمس
نقاط. هي قوة دافعة، تسند الضعيف أن يسقط، وتمسك القوي أن
يجمح، وتعصم الغالب أن يطغى ويفجر، وتمنع المغلوب أن ييأس.

إن هذه المحاسن التي جاءت من آلاف محاسن الإيمان. تملأ النفوس
بالفضائل وتزكيها، وتقوم الضمائر، وتسدد العزائم، وتزكي القلب،
وتغذي العقل.

وإذا وقفنا عند النقطة الأولى من نقاط محاسن الإيمان، والتي
تتضمن: « أن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين» وجدنا أن
بديع الزمان يتابع ذلك بقوله: « ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه
الجليل، ويربطه بوثاق شديد، ونسبة إليه. فالإيمان إنما هو انتساب. لذا
يكتسب الإنسان بالايمن قيمة سامية» (٢)

فالايمن – كما ترى – ليس في واقع منهج بديع الزمان التربوي سوى
سلوك هادف وواعي. سلوك ليس خيالياً أو وهمياً. بل إنساني وعملي.

يبلغ أقصى درجات الدقة في التحقق، حينما يرقى بالسالك. ومما يكاد أن يكون معروفاً أن في الإنسان قابلية التأثر، وهو يملك القدرة على التأثير. فكان لا بد من صيانة «قابلية التأثر لديه» لكي لا يكون مجالاً رحباً للمؤثرات الخارجية المنافية للفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والكمالات الإنسانية الكريمة.

ولأن الانسان يملك القدرة على التأثير فيما حوله. أصبح من الضروري أن يظل هذا الإنسان سليماً لتظل تأثيراته سليمة. ولا يمكن أن يظل الإنسان سليماً إلا في ظلال الإيمان ..

وقد لا يخفى أن النفس الإنسانية، تسعد، وتشقى، وتصح، وتمرض، وتتسامى، وتتسافل، وهي كذلك كالجسم بحاجة إلى وقاية قبل الإصابة، وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة، التي تنتاب النفوس المظلمة، التي فقدت مناعتها، فخارت قواها ..

ولا توجد مدرسة. تتناول بالرعاية، والعناية: النفس الإنسانية، كمدرسة الإيمان الذي يسمو بصاحبه إلى أعلى عليين.

إن الإيمان يخطط المسار، ويضع المنهاج، ويستجيب لنوازع النفس الخيرة، وينميها، ويحول بين النفس وبين دواعي الشر والانحراف. بما وفر من قيم فعالة تعالج ما قد يبتلي به الإنسان، من إصابات سلوكية تؤدي به إلى الهاوية.

فبالإيمان تتقد جذوة الحب الإلهي في نفس الإنسان المسلم. فيرتقي إلى عوالم الإنشراح، وساحات القرب، ويجوب رياض اليقين ..

– أما النقطة الثانية من نقاط محاسن الإيمان، فإنها تنطلق من: أن الإيمان ينير الكائنات وينقذ القرون الخالية والآتية من الظلمات الدامسة..

ولقد كان الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، في هذه النقطة، بليغاً أقصى درجات البلاغة، ويعلم الله أنني وقفت طويلاً أتأمل هذه الحكمة. التي انطلقت لتؤكد صلة المؤمن بالكائنات والوجود. وتبين في وضوح. أن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته.. ولا يسعه إلا أن يطيع ربه. في ولاء. لا يشوبه استتكاف، ولا يطاوله تأب.. بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله، يهتف في البداية، من عالم الأزل، بلغة المتهور، أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد، تجاه قدسية المعبود. بما سجله الحق في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ رَهِبٍ دُخَانٍ فَ قَالَ لَهَا لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

إن هذه النقطة التي تبرز صلة المؤمن بالكائنات، ودور المؤمن في الإنقاذ، والإصلاح، والصلاح، تجعل سلوك الفرد المسلم، قائماً على أساس الإختيار اليقظ الواعي. بعيداً عن العادة الآلية، التي تجعل من السلوك سكوناً رتيباً، لا يعبر عن وعي الإنسان، وارتباطه بخالقه.

وكم هو سهل هدم الموقف الإنساني، والانسحاب من الفعل، مهما يكن خيراً وضحماً. عندما يبني هذا الفعل على أساس من الآلية والاعتیاد. بعيداً عن الوعي، والقناعة، والاتجاه الذاتي اليقظ.

لذلك جاء كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان. تحرص في نقاطها على تثبيت قواعد الفعل، في أعماق الذات الإنسانية. وكأن

الإمام بديع الزمان يريد أن يضمن استمرار الإنسان المسلم على فعل الخير، وبناء الحياة الإيسانية على أسس من الوعي، والاخلاص. وبمناهي عن النفاق، والرياء، والاحتيال.

– والنقطة الثالثة من نقاط محاسن الإيمان: « أن الإيمان نور، وهو قوة أيضاً فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي . يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من تضيقات الحوادث. مستنداً إلى قوة إيمانه، فيبحر متفجراً على سفينة الحياة، في خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان، والسلام، قائلاً: توكلت على الله..

فالإيمان إذاً يقتضي التوحيد. والتوحيد يقود إلى التسليم. والتسليم يحقق التوكل. والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولا تظن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كلياً. وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية. ينبغي رعايتها ومداراتها. أما التشبث بها أو الأخذ بها. فهو نوع من الدعاء الفعلي، ومن ثم فطلب المسببات، وترقب النتائج، لا يكون إلا من الحق سبحانه وتعالى.»

وأن المتأمل أبعاداً وأعماقاً، فيما ذكره الإمام بديع الزمان في النقطة الثالثة، من نقاط محاسن الإيمان. يرى أنه أمام نقاط تقود الإنسان إلى الطريق السليم، ويتبين له بوضوح. حرص الإمام بديع الزمان، على سلامة صدور المؤمنين.. فإن أبرز ما يرتفع بقيمة الإنسان، هو إيمانه بربه ومعرفته به. ولا يصل الإنسان إلى كمال الإيمان إلا إذا أيقن: أن الله وحده هو مصدر العطاء والمنح لهذا الوجود.

ولا يتكامل هذا الإيمان في جنان صاحبه إلا إذا علم علم اليقين أن الله وحده هو كل شيء، المتفرد على سائر خلقه بالحياة الأزلية، والبقاء، والوجود. وأن ماعداه ليس سوى أعراض تستمد قيمتها، وحيويتها، وكيانها من إشعاع جلاله، وشمول قيوميته.

والانسان لا بد له من إدراك هذه الحقيقة، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها، بحيث تنعكس بكل إشراقاتها عليه، في كل ما يأتي وما يذر، يعتمد على ربه، ويستمد منه العون..

الإيمان – كما يقول بديع الزمان – يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين».

نعم الإيمان يقتضي التوحيد، لأن الإيمان الحق يطبع أصحابه بطابع الصلة القوية بالله، ويمنحهم طاقات من الثقة فيه لا مثيل لها. ويصب في وجداناتهم من دقات اليقين ما يعلو فوق الريب.

والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، لأن التوكل أحد شعب الإيمان وموجباته، وأحد خصائصه، ومنحه ومعطياته. به تتجدد الثقة بين الخلق والخالق، وتتوثق الصلة بين أهل الأرض وخالق الوجود.

إن التوكل من خير صفات الإيمان، التي يتصف بها المؤمنون. حيث بها يستعلي المؤمن على كل هون، ويتأبى على كل ضيم، ويقف قلعة شماء في وجه الأهواء وصخرة عاتية. لا يلين مع الهوى، ولا يتأثر بأي إغواء أو غواية. ولا يرى على نفسه سلطاناً غير سلطان الله.

ودعوة الإمام بديع الزمان إلى التسليم الذي يحقق التوكل . دعوة إلى كل ما ينهض بالمسلمين . ويربطهم بأسباب الثقة والعزة والسعادة ، في شتى نواحي الحياة . والتوكل برهان إيمان الأمة ، وآية إسلامها ، ومناط عرفانها بربها ، وتوحيدها لخالقها ، الذي تلوذ به ، وتلجى إليه ، وتعتصم به ، وتتوكل عليه ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾

وإذا انتقلتُ إلى النقطة الرابعة ، من نقاط محاسن الإيمان ، وجدت أيضاً ، يؤكد أن الإيمان ، يجعل الإنسان إنساناً حقاً ، بل يجعله سلطاناً . لذا كانت وظيفته الأساس : « الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه ، بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً مفترساً في غاية العجز » (٥) .

ويذكر الإمام بديع الزمان دليلاً واضحاً ، وبرهاناً قاطعاً ، من بين آلاف الدلائل على هذه المسألة ، وهي التفاوت والفروق ، بين مجيء الحيوان والإنسان إلى دار الدنيا . . وقبل أن أذكر الدليل الذي فاض به الشيخ بديع الزمان . أقرر أنني وقفت طويلاً متلمذاً على هذا الحكيم ، الذي يسعى إلى ترسيخ الإيمان ، وبيان اكتمال الإنسانية الذي لن يكون بغير الإيمان .

يقول الإمام بديع الزمان في هذا الدليل : « نعم إن التفاوت بين مجيء الحيوان والإنسان إلى هذه الدنيا ، يدل على أن اكتمال الإنسانية وارتقاءها إلى الإنسانية الحقّة . إنما هو بالإيمان وحده .

وذلك لأن الحيوان حينما يأتي إلى الدنيا ، يأتي إليها كأنه قد اكتمل في عالم آخر ، فيُرسل إليها متكاملاً ، حسب استعداده . . فيتعلم في

ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته، وعلاقاته بالكائنات الأخرى، وقوانين حياته، فتحصل لديه ملكة.. فيتعلم العصفور زو النحلة -مثلاً- القدرة الحياتية والسلوك العملي، عن طريق الإلهام الرباني، وهدايته سبحانه، ويحصل في عشرين يوماً على ما لا يتعلمه الإنسان إلا في عشرين سنة.

إذاً الوظيفة الأساس للحيوان، ليست التكمّل والاكتمال بالتعلم، ولا الترفي بكسب العلم والمعرفة. ولا الاستعانة والدعاء بإظهار العجز.. وإنما وظيفته الأصلية: القيام بالعمل حسب استعداده. أي العبودية الفعلية.

أما الإنسان فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو عندما يقدم إلى الدنيا، يقدمها وهو محتاج إلى تعلم كل شيء وإدراكه. إذ هو جاهل بقوانين الحياة كافة جهلاً مطبقاً. حتى قد لا يستوعب شرائط حياته خلال عشرين سنة. بل قد يبقى محتاجاً إلى التعليم والتفهم مدى عمره.

فضلاً عن أنه يُبعث إلى الحياة. وهو في غاية الضعف والعجز. حتى أنه لا يتمكن من القيام منتصباً إلا بعد سنتين من عمره. ولا يكاد يميز النفع من الضر، إلا بعد خمس عشرة سنة. ولا يمكنه أن يحقق لنفسه منافع حياته ومصالحها ولا دفع الضرر عنها إلا بالتعاون والانخراط في الحياة الاجتماعية البشرية.

والنتيجة الضرورية التي يستخلصها الشيخ بديع الزمان، أن وظيفة

الإنسان الفطرية إنما هي التكمّل « بالتعلم » أي الترقّي، عن طريق كسب العلم، والمعرفة، والعبودية « بالدعاء ».

أي أن يدرك في نفسه ويستفسر:

– برحمة من وشفقته. أدارى بهذه الرعاية الحكيمة؟

– وبمكرمة من وسخائه أربى هذه التربية المفعمّة بالشفقة والرحمة؟

وألطاف من وجوده أغذى بهذه الصورة الرازقة الرقيقة؟

فيرى أن وظيفته حقاً هو الدعاء، والتضرع، والتوسل، والرجاء.

بلسان الفقر، والعجز، إلى قاضي الحاجات. (٦)

أما النقطة الخامسة من نقاط محاسن الإيمان. فإن الشيخ بديع الزمان. يقول فيها: « كما أن الإيمان يقتضي الدعاء، فيتخذة وسيلة قاطعة، ووساطة بين المؤمن وربه، وكما أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق، فإن الله سبحانه وتعالى، يدعو الإنسان، إلى الأمر نفسه. بقوله: « قل ما يعبؤا بكم بي لولا دعائكم » ويقوله تعالى: « ادعوني أستجب بكم » ..

ولا يخفى على باحث أو دارس، أن هذه النقطة، تتصل بالنقطة الرابعة، من نقاط محاسن الإيمان، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً. فالعلاقة بين الإيمان والدعاء علاقة لا انقطاع فيها. . لأن الدعاء تعبير طبيعي عن إحساس نفسي، وشعور حي لدى الإنسان. والمؤمن بالله سبحانه وتعالى، يعرف مصدر توجهه، ومبدأ حياته. وهو الله سبحانه. فيتوجه إليه بروح مؤمنة، مملوءة بالأمل، والثقة، والرجاء. في حين يظل نقيضه الكافر بالله يعيش حالة من الحيرة والضياع، والبحث غير المجدي، وهو

يعيش الإحساس ذاته. ولكن لا يدري إلى أين يتوجه لا يعرف الجهة التي يبثها هذا الإحساس والالم، ولا يستطيع اكتشاف الرحمة والحنان، الذي يغمر عوالم الوجود، ويتسع للتجارب مع هذا الإحساس.

لذلك فهو يحمل هذا الإحساس بين جنبيه: وخزات تباعد بينه وبين الاستقرار، والطمأنينة. ويأساً يسد أمامه، منافذ الرجاء، والخلص... فالدعاء هو من مقتضيات الإيمان بالله، لأنه وسيلة لربط الإنسان بالله، والتوجه إليه، والاعتراف بين يديه، وإظهار حاجة الإنسان وفقره وضراوته، ورغبته في إصلاح نفسه، وانعاش حياته.

وإذا كان الدعاء هو من مقتضيات الإيمان بالله - كما أشار إلى ذلك الشيخ بديع الزمان - فإن الفطرة الإنسانية - كما يقرر بديع الزمان - تتلهف إليه بشدة وشوق. لأن الإحساس بالحاجة والشعور بالحيرة، والرغبة في التوجه إلى قوة تساعد على الإنقاذ والخلص، إحساس بشري عام.

فما من إنسان إلا وينتابه العجز والحيرة، ويشعر بالضيق، ويحس بالحاجة إلى قوة تسعفه، وتنقذه من محنته، وحييرته، وتقطع رأسه، وشعوره بالعجز، والضياع في هذا العالم.

والنفس البشرية، ذات الأبعاد المختلفة، والاعماق، والأغوار المعقدة الغامضة.. لا يمكن ملؤها بالحاجات المادية وحدها. مهما يغالي الإنسان في الإشباع المادي.

والإنسان بطبيعة تكوينه، وحقيقة وجوده. يتعرض في حياته لمشاكل ونكبات، وآلام، وإحساس بالحيرة، وقصور عن الأهداف.

فليس كل شيء في الحياة يتحقق للإنسان كما يريد، ولا كل شيء يجري وفق مشيئته. وبذا تبقى الحاجة قائمة، والرغبة غير مشبعة، والشعور بالحاجة متعاضماً في نفس الإنسان..
وتلك حكمة الله الخبير.. جعل كل ذلك ليبقى الإنسان مرتبطاً بخالقه، متوجهاً إليه..

ومن اللفتات التي لفت إليها بديع الزمان في الدعاء. قوله: «إن استجابة الدعاء شيء وقبوله شيء آخر. فكل دعاء مستجاب. إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه منوط بحكمة الله سبحانه..» (٧)

والدعاء عبادة يتعبد بها المسلم، ويتقرب بها إلى الله سبحانه..
والدعاء تعبير عن إيمان المسلم، وإقراره بأن الله هو خالق كل شيء.
وتلك نقاط محاسن الإيمان، التي اختارها الإمام بديع الزمان سعيد النورسي من بين آلاف المحاسن، لتكون علامات مشرقة.

والشيخ بديع الزمان اختارها من بين آلاف المحاسن، لتكون حقائق المحاسن، دافعة للإنسان المسلم إلى أن ينطلق، وهو مسوق بقيم وموارث لها في وعيه فاعليتها القوية.

الحقائق الايمانية والعقائد الإسلامية:

مما يحسن أن أشير إليه، أنني وقفت طويلاً، أبحث عن عنوان لهذا المحور، الذي يتناول العقائد الإسلامية. وكلما وضعت عنواناً، بدأ لي أن فيه قصور، وغيره أفضل منه. وشاء الله سبحانه وتعالى، أن تقع عيناى على كلام للإمام بديع الزمان سعيد. يقول فيه: «إني أخال أن

لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشاه النقشبندي، والإمام الرباني. وأمثالهم، من أقطاب الإيمان، رضوان الله عليه أجمعين.. أجل لو كان هؤلاء في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية: «الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية»، ذلك لأن منشأ السعادة الأبدية فيهما. وأن أي تقصير مهما كان فيهما يعني الشقاء الأبدي، إذ لا يمكن الدخول إلى الجنة دون إيمان». (٨)

وما أن انتهيت من التأمل في هذا الكلام، حتى وجدت نفسي أمام العنوان الذي يصلح ويكاد أن يكون واضحاً. أن القرآن الكريم دعا بالحاح، إلى الإيمان بالحقائق الكبرى- دعا إلى الإيمان بالله، خالق الكون. ودعا إلى الإيمان بالحياة الآخرة، التي تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدي، ودعا إلى الإيمان بالنبوة والوحي، طريقاً إلى معرفة الحقائق التي يريد الله أن يلقبها إلى الإنسان.. سواء كان موضوعها عالم الغيب، أو حقائق ما وراء المادة. أم كان توجيه الإنسان، وتنظيم شئونه في هذه الحياة. (٩)

والباحث والدارس لمجموعة الكلمات من كليات رسائل النود، للإمام العلامة بديع الزمان سعيد النورسي يلحظ بوضوح. أن العلامة بديع الزمان، تناول هذه الحقائق تناولاً يؤدي إلى معرفة الله والإيمان به.

وترى ذلك واضحاً في الكلمة الثانية من مجموعة الكلمات الكبرى، والتي تفسر سراً مهماً من أسرار آية: ﴿والذين يؤمنون بالغيب﴾. (١٠)

- كما ترى ذلك في الإشارة الأولى من المقدمة التي تثبت وجود صانع العالم بوجه بديع. (١١)
- وترى ذلك أيضاً في الإشارة الثانية التي تثبت الرسالة الاحمدية، بعدة من وظائف الرسالة. (١٢)
- وترى ذلك في الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل، وجلوة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.
- وترى ذلك واضحاً في الخاتمة التي تثبت سهولة الحشر الاعظم.
- وترى ذلك في الرشحة الثانية عشرة. إنه برهان قاطع، ودليل ساطع لوجود الآخرة، كما أنه برهان ناطق، ودليل صادق، على وجود الخالق.
- وترى ذلك في الكلمة الثانية والعشرين. مما يتصل بالتوحيد.
- وترى ذلك في الكلمة التاسعة والعشرين، من موازين رسائل النور. (١٣)
- وترى ذلك واضحاً في مناحي كثيرة، ومواقف متعددة، مما صنفه العلامة بديع الزمان سعيد النورسي. مما يؤكد لك:
- نظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون، وبين الله والإنسان، وبين الكون والإنسان.
- ويتكون من مجموع ذلك: عقيدة كاملة، ونظرة شاملة. وهذه العقيدة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان. ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة. (١٤)

إن العلامة الشيخ بديع الزمان، يخص بالحقائق الإيمانية الإنسان. ويخص بالمخاطبة المسلم. لأنه هو المقصود. ويريد في الوقت نفسه أن يشعره بموقعه من هذا الكون.

لان الإنسان أولاً: نوع من أنواع أخرى في هذا الكون. اشترك معها في امور، ثم يتميز عنها.

والإنسان ثانياً: نوع من أنواع الحيوانات، يدخل في تصنيفها، ويشترك معها في أمور. قال تعالى: ﴿ وَاللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۗ ﴾ (١٥)

والإنسان ثالثاً: نوع متميز عن الحيوان.

والإنسان رابعاً: يتميز بجانب روحي. وهو الجانب الذي رفع مرتبة الإنسان وجعله في مقام التكريم.

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان. قائلاً له: « إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحققة، فاظفر بمعرفة الله. إذ حقائق الموجودات كلها إنما هي شعاعات اسم الله الحق، ومظاهر زسمائه الحسنی، وتجليات صفاته الجليلة .. » (١٦)

يقول زبير كوندوز آلب أحد تلاميذ الأستاذ النورسي المخلصين: إن أعداء الدين يهدفون أول ما يهدفون في وسائلهم، إلى تهوين أركان الإيمان، واطعافها في النفوس. ومن ثم القيام بهدمها وإزالتها.. إذ من المعلوم أن سريان شبهة واحدة، في أحد أركان الإيمان، أو إنكارا جزئية فيه لهي أخطر بكثير وأفدح من إهمال يقع في الأمور الفرعية في الدين. ولأجل هذا أصبح أجل خدمة تقدم في الوقت الحاضر للإسلام

هو: تقوية الإيمان في القلوب، وترسيخه في النفوس. وذلك بتحويله من إيمان تقليدي خامد إلى إيمان تحقيقي ينبض بالحياة.. فتقوية الإيمان هي في مقدمة المستلزمات الآنية، وانقاذ الإيمان هو من أولى الواجبات والمهمات». (١٧)

فالحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية. تزود المؤمن بمضادات ذات قيم فعالة تعالج ما قد يبتلي به من إصابات سلوكية. وقد حرص العلامة الشيخ بديع الزمان على إبراز هذه الحقائق، وإعطاء ما تستحق، لأنها:

– تربط الإنسان بالله، ويقوى الكون الظاهرة والخافية.

– ولأنها تبث الثقة، والطمأنينة في الإنسان، وتمنحه القوة لمواجهة القوى الالحادية والأوضاع الباطلة.

– ولأنها توضح للإنسان غايته واتجاهه وطريقه..

– ولأنها تجمع للإنسان طاقاته وقواه، وتدفعها في اتجاه الغاية.

– ولأنها تقدم للإنسان الحل لمشكلاته جميعها.

– ولأنها تتسع لكل أنواع النشاط الإنساني، وتربط بين المادة والروح.

– ولأنها كفيلة بتعديل القيم والموازن، وتعديل الحكم، والتقدير، وتعديل المنهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب. (١٨)

هذه الحقائق يكفي أن تستقر في قلب المؤمن لتقف به أمام الدنيا كلها بمن فيها، وما فيها.. عزيزاً.

والحقائق الإيمانية – عند الشيخ بديع الزمان – كما وضحت من

«رسائل النور» تساهم مساهمة فعالة، في بناء الإنسان المؤمن، وترسخ عنده القيم. لأنها تشكل النظرة التفسيرية للحياة والوجود. فتسلك كأساس لتصوير الإنسان للمواقف، والسلوك، والعلاقات، كمنطلق للتقويم، وإصدار الأحكام على الأشياء، وفهمها..

ليس في عالم المعتقدات عقيدة كعقيدة التوحيد -الإيمان بالله- من حيث سعتها، وشمولها، وانطباعها، على كل موقف، وسلوك إنساني. حتى ليسلك هذه العقيدة «الإيمان بالله» وما يتفرع عنه، كرائد. يخطط للإنسان طريق السير، وقائد يتقدم المسيرة، ومحور تدور عليه كل نشاطات الإنسان.

اهتمام الإمام بديع الزمان بالدعوة إلى الإيمان

إن الإمام بديع الزمان سعيد النورسي اهتم بمحاسن الإيمان، والحقائق الإيمانية، اهتماماً بالغاً لأن الإيمان بالله هو أساس كل تقدم، كما هو أساس كل مواجهة للتحديات..

وأثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس الإيمان هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل. وانكشف بسبب وجودهم، ونقاء أخلاقهم: أساليب الوضاعة، والخيانة، والغدر. إن هذه المعاني التي أثبتتها التاريخ، كانت ماثلة أمام الإمام الشيخ بديع الزمان. وهو يسعى في رسائله إلى إيجاد خصائص ومقومات، يتقوم بها محتوى الذات واتجاهها..

ولذلك عمل على أن يقدم للأمة الإسلامية كل ما من شأنه أن يأخذ بالمسلمين إلى الطرق..

يريد أن ترى المجتمعات الإسلامية نمطاً جديداً من الناس. يعطي من نفسه ليسعد غيره. ويرضي بالهلاك لذاته كي تحيا وتنهض أمته.

يقول الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي: « اخواني الصادقين الأوفياء: إنه لأجل إطمئنان عوام المؤمنين، وتقبلهم حقائق الإيمان دون تردد يساورهم يلزم في الوقت الحاضر، وجود معلمين يحملون من الإيثار ما يجعلهم يضحون لا بمنافعهم الدنيوية وحدها. بل بمنافعهم الأخروية أيضاً. في سبيل منافع أهل الإيمان الأخروية.

فيكون ذلك الدرس الإيماني خالصاً نقياً. بحيث لا يفكرون فيه بالمنافع الشخصية مهما كانت. بل يسعون في الخدمة الإيمانية بالحقائق. نيلاً لرضى الله، وعشقا للحقيقة، وشوقاً إلى الحق والسداد الذي في الخدمة.

وذلك ليطمئن كل من يحتاج إلى الإيمان اطمئناناً تاماً».. (١٩)

« إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان وأجل وظيفة، هو إنقاذ الإيمان والسعي لإمداد إيمان الآخرين بالقوة، فاحذر يا أخي من الانانية والغرور، وتجنب من كل ما يؤدي إليهما. بل ينبغي لأهل الحقيقة في هذا الزمان التجرد من حظ النفس، ونبذ الغرور والانانية. وهذا هو الأليم لهم، لأن أعظم خطر يتأتى في هذا العصر، إنما يتأتى من الانانية والإعجاب بالنفس، فعلى أهل الحق والحقيقة أن ينظر كل منهم الى تقصيرات نفسه ويتهمها دائماً ويتحلى بالتواضع التام». (٢٠)

هذه المواقف توضح الوجهة التي يجب أن يتجه نحوها الإنسان، والغاية التي يجب أن يسعى إليها، ويتسابق من أجل الفوز بها، ليركز

اتجاهه وغايته في كل أفعاله ونواياه في الاتجاه إلى الله. والدارس لمواقف الإمام الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، يجد أن هذه المواقف إيمانية. لا تبتغي سوى الإيمان، وترسيخ حقائق الإيمان. والمواقف الإيمانية لا تنظر إلى «الأنا». إنما تفكر في «نحن» أي في الآخرين، وأمر المؤمنين.

ودعوة الإمام بديع الزمان تنطلق من القرآن الكريم الذي علم الإنسان. أن المؤمنين يعطون لأمتهم، ويتحملون في سبيل العطاء المصاعب. وإن انطلاقة الإمام الشيخ بديع الزمان من القرآن الكريم، جعلت الرجل قريباً من القلوب والعقول..

ولما كانت لهذا الحكيم معرفته بالنفس الإنسانية. وأنها كالجسم تسعد وتشقى، وتصح وتمرض، وتتسامي وتتسافل. هي كذلك كالجسم بحاجة الى وقاية قبل الإصابة وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة التي تنتاب النفوس المظلمة التي فقدت مناعتها..

ولما كانت للإمام الشيخ بديع الزمان معرفته بهذا، استطاع بثقافته القرآنية، أن يضع رسائل ومصنفات، كفيلة باتقاد جذوة الإيمان في نفس الإنسان المسلم حتى يجوب رياض اليقين، وتطل نفسه على نور البصيرة في الرؤية، الذي لا يعتره غروب، ويتوفر لديه حضور الوازع الداخلي الذي لا يعقبه غياب.. أدرك الرجل بثقافته القرآنية، وذكائه الحاد. أن الإيمان قوة لا تدانيها قوة في شد الأعصاب، وشحن الخلايا والطاقات. ولهذا أبرز محاسن الإيمان والنتائج التي ترتبت على الالتزام بهذه المحاسن.

قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

ولا يخفى ان أثر الإيمان يبرز بوضوح في الدعوات التي غيرت وجهه التاريخ. لذا يعمد أصحاب الدعوات إلى اختيار العناصر المؤمنة. ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يريدون « الكَم » بل يريدون « الكيف » .

والرعيل الأول من المسلمين كانوا أساتذة الدنيا بقوة إيمانهم بربهم. وقد لاقوا آلاماً شديدة، لو صبت على غيرهم لغير موقفهم. ولكن الإيمان حين يخالط القلوب، يجعل أصحابها قوة.

فبلال الحبشي، وعمار بن ياسر، ومصعب بن عمير، وصهيب الرومي.. ضربوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة، وصدق النية، وقوة الإيمان.

ولقد استطاع الحكيم بديع الزمان، أن يُجَلِّيَ الحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية. لتكون أكثر وضوحاً، وأقرب منهلاً.. فعالج قضايا الإيمان بالله، وبملائكته وكتبه ورسله، كما عرض للوحي والنبوة ورسالة محمد ﷺ. والبعث. وأمور الآخرة.. مما مكنه من توضيح الرؤية الحياتية للإنسان. ورسم منهج السلوك، وأسلوب الحياة.

ولا يكون المرء مجانباً للصواب، إذا أدرك أن أشد ما تحتاج إليه الامة هو: الإيمان.. الإيمان الحقيقي.. الإيمان الذي يفيض بالعطاء على الآخرين.. لأن أعظم وظيفة هي انقاذ الإيمان، والسعي – كما يقول بديع الزمان – لإمداد إيمان الآخرين بالقوة.. لقد كان اسلوب بديع

الزمان - وهو يعرض لحقائق الإيمان - أسلوب ترسيخ وتأکید - وليس أسلوب عواطف وانفعال . لقد خاطب الرجل العقل والقلب فوصل إلى القلب والعقل .

ويمكن زن يقال : لماذا اهتم بديع الزمان بالإيمان وقضاياها؟ والباحث في سيرة الرسول ﷺ ، وقصة ظهور الإسلام وانتشاره في الأرض يدرك . أن سيرة الرسول صوات الله وسلامه عليه قامت على الإيمان ، وللإيمان . وظهور الإسلام تم على إنطلاق الإيمان ، ولنشر الإيمان ، وترسيخه بين الناس ، ومن هنا ندرك أبعاد اهتمام الحكيم بديع الزمان بالإيمان ، وحقائق الإيمان ، ومما هو مؤكد لدى الباحثين : أن العقيدة الإسلامية « الإيمان » كانت في حياة المسلمين هي النافذة ، التي يطلون منها على العوالم الحية ، كما كانت العقيدة ذاتها ثذ المنظار الذي ترى بواسطته كافة الحقائق ..

وأن أمة تخطو في الطريق ، وتسعي إلى المجد . لا بد وأن تتعلم ، وتنتمي إلى الإيمان بالله .

* * *

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- كتب السنة النبوية.
- ٣- الإمام بديع الزمان، مجموعة الكلمات من كليات رسائل النور.
- ٤- احسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيد النورسي، ط. دار الوفاء. مصر.
- ٥- الإمام بديع الزمان، الإيمان وتكامل الإنسان، ط. دار الوفاء. مصر.
- ٦- د. أحمد السايح، عبقرية الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، بحث معد للنشر.
- ٧- د. أحمد السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة، ط. القاهرة.
- ٨- د. أحمد السايح فلسفة الحضارة الإسلامية، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٠م.
- ٩- د. علي محيي الدين القره داغي، الإنسان والإيمان، تحقيق، ط. دار الاعتصام بالقاهرة.
- ١٠- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط. القاهرة.
- ١١- الإمام علي، نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ط. القاهرة.
- ١٢- بديع الزمان، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، ط. بغداد.



محمد رشدي عبيد

- من مواليد الموصل – العراق سنة ١٩٤٧ .
- حصل على شهادة دبلوم في التربية وعمل في مجال التعليم اكثر من خمس وعشرين سنة .
- له مؤلفات عدة منها (الايمان في ضوء العلم والعقل) و (النبوة في ضوء العلم والعقل) .
- وله ابحاث قيمة في الجمالية في الاسلام .
- نشر قصصاً ومقالات أدبية ونقدية وفكرية ودينية في مجلات عربية وتركية وهندية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملاحح تربوية

في رسائل النور

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله

وصحبه ومن تبعهم باحسانٍ الى يوم الدين

﴿ ربنا آتانا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشداً ﴾

« اللهم اجعل عملنا هذا صالحاً واجعله خالصاً

ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً »

بدءاً اقدم اعتذارى عن هذا البحث الذى ولد ولادة صعبة وفي
زحمة أعمال المؤتمر من بحث أم، عمره الورقى خمس وستون صفحة.

عوامل شتى دفعت النورسى باتجاه الفعل التربوى.. خارجية
وداخلية، غربة حادة على تل يوشع، وجلسة روحية خصبة على
ضفاف نهر الفولغا، وتلاوة قرآنية خاشعة في جامع بايزيد.. كلها
أوقدت في ذاته صحوة روحية قادت سفينة حياته نحو تخوم ترضي
توقه العميق للخلود.. وقد كملت الشعرات البيض الزائرة لرأسه
مهرجان النور في صحوته بدلالاتها المتوهجة ووجهت سطوة فكره
بسوط روحه، كما فتحت زيارته لمقبرة ابى ايوب الانصارى آفاقا

جديدة في تصوره الغيبي ادمجته في الفضاء الآخر بكل احياءاته
واسراره.. اما القرآن فكان يصنع في داخله معماراً جديداً اصيلاً
ويضرم نار توحيده ويوصل في ذاته الحنين الى التبليغ الرسالي.. طبيعته
الشاعرية المرهفة المتوزعة بين التوق اللامحدود وبين شدّ الواقع
المحدود.. وصلاحه الذي أزهده في زينة الارض الخادعة، ميله
الجارف للتبليغ، ألحت عليه ليتجه هناك الى « بارلا » ليحضر ادوات
صناعة تاريخ الايمان في زمانه ومكانه.. فكان رجل القدر حقاً...

ما هو مفهوم التربية في رسائل النور؟ ما هو منطلقها؟ ما اهم
خصائصها؟ ..

باختصار كان النورسى يعشق الحياة عشقاً هائلاً ويراهها اكمل ثمرة
للوجود ، وكان يذوب في حب الانسان ويود لو فدا سعادته ومصيره
بنفسه ..

الانسان عند النورسى ليس هيكلأ ماديا مجردا، او عقلاً منطقياً
بارداً ، انه كائن حساس فريد ومتميز ، واسع الدوائر الوجودية، ذو
خصائص عقلية وروحية ووجدانية واخلاقية شاملة، خليفة الارض،
مبتلى بتوتر عميق بين محدودية امكاناته ولانهائية آماله في الكمال
والخلود..

من سمات منهجه التربوى: شمولية التناول ، والمنهجية ، والاصالة
التي عجز ادعيأؤها الوضعيون من التوفيق بينها وبين المعاصرة لقيام
مناهجهم على انتقاء أهوائى ، او اجتهادى غير قائم على منهج متسق
وموحد وضمن ضوابط اصولية خالصة وفهم عميق لروح الامة وفطرة

الانسان، والواقعية التي تنظر الى الانسان كما هو ولكنها تدفعه الى
المثال ببسر وحكمة وتبصر.

اهم ابعاد التربية في منهج النورسي

البعد الايماني: لقد ادرك النورسي ان الانسان كائن ميتافيزيقي
ولا يشبع حاجاته العقلية والروحية والعاطفية الا التوحيد.. فاية نظرية
مادية او عقلية او علمانية لم ولاولن تقدر على اشباع هذه الحاجة
العميقة.. وذلك ما اكده كثير من فلاسفة العلم، كاريل، رينيه دوبو،
سوليفيان، جان فوراستيه.. وعلماء نفس واجتماع معاصرون مثل وليم
جيمس، سوروكين وغيرهم.. لقد ادرك النورسي ان الفرد لا بد ان
يعبد إلهاً، وذلك حق اثبتته الواقع الفكري. فقد عبد كثير من الفلاسفة
بشكل من الاشكال آلهة شتى، التيار الحيوي عند رجسون، والتطور
الخلاق عند دارون، والروح المطلق عند هيجل، الديالكتيك في فكر
ماركس، المجتمع الذي آلهه دور كايم، والجنس الذي قدسه فرويد،
ووجود الفرد الذي بالغ سارتر في توثينه.. وماهذه المصطلحات سوى
اسماء تعبر عن افعال وسنن كونية او انسانية او حياتية او اجتماعية
خلقها الله واوجدها ضمن مشيئته الكونية..

لقد ردم النورسي الاغوار الروحية العميقة لانسان زمانه بعرض
فكرة القرآن عن مبدأ الانسان ومصيره وغاية وجوده وقدره وعن اسرار
الكون والحياة. لقد انقذ الانسان من مشاعر فقدان الهوية، والشعور
بانقطاع الجذور، والقلق من المصير، والرغبة من القدر، والالام،
والموت، لقد قدم له الايمان بالله واليوم الاخر والغيب القرآني فجعل منه
انسانا آخر يشعر بالطمأنينة والسلام النفسي والانسجام مع الكون

ومخلوقاته، والثقة بالله، كما انقذه من التوحيد التقليدي البارد واشعل روحه بالايمان التحقيقي الفعال المفجر للطاقات المبدعة، كما اعاد لمعنى العبادة حيويته وشموله ليستوعب كل تنفيذ صائب ومخلص لحكم شرعي، وكل فعالية حياتية او عملية ملتزمة بمنهج الله او متوجهه في مقاصدها الي الله سبحانه وتعالى ..

وكانت اسماء الله الحسنى وسيلته لتحرير الفكر من الرتابة والغفلة والتقليد والجمود، وتحرير الحس من التكرار و الصور المملة، وتحرير الوجدان من غبار السامة والمشاعر التافهة لتعيد له دهشته الاولى البكر للكون البديع، ولتنقذ العقل من السقوط في مهاوى المحاكمات العقلية الباردة للوقائع اليومية وتفتح له افقاً غيبياً ومشهوداً واسعاً لتفسير هذه الحقائق .. وهكذا انقذ الانسان من الاشكالية المتأزمة في الضمير الانساني بين الامل والالم، والواقع والطموح، والحرية والضرورة، والعشق والقوات، والميل للخلود ومناوشات الزوال، والوجود والعدم، والواقع والمثال، والفرد والمجتمع والتوافق والصراع ..

اما في المجال العقلي: فقد فعل النورسي الكثير .. ومما فعله: تجريد الفكر من المعلومات غير الحيوية وغير العملية، وغير الحقيقية، وافسح المجال لمقابلاتها الايمانية، وجعل نفسه نموذجاً لذلك التجريد .. كما وفق في التوفيق العقلي بين ماتدركه الحواس وما لاتدركه، وذلك بغرس الايمان بالغيب في الوعي البشري دون تصادم مع واقعات الحس ومقررات العقل المنطقي السليم ونتائج العلوم التجريبية اليقينية القطعية، فوسع من افق الواقع المكاني والزماني في وعي الانسان .. وقد ازاح امامه بعون القرآن كل شبهات الماديين واوهامهم وظنونهم واهوائهم ..

ومن افضل ما وضعه من شروط للتوصل الى الحقيقة: الشروط الوجدانية والعقلية والروحية والاخلاقية كتجنب الغفلة، والمعصية، والغرور، والتعصب، والوهم، والنفي اللامسؤول، والافتراض او التنظير غير العلمي او غير المتناسك.. كما دعا الى تنقية كتب التراث من التفسيرات والآراء التي دحضها العلم بيقينياته.

وفي مجال التربية الاخلاقية:

كان من ابرز ما اصله: التهوين من قيمة الشر المنتفش في عصره باعتباره شيئاً عديمياً وسلبياً وغير اصيل لتنفير الناس منه وتجريتهم عليه واطمئنته لارادة الانسان الحرة.. وتحديد اطر الفعل الاخلاقي.. ورسم حدوده بدقة، و اشارته الى المؤثرات المادية والمعنوية المشكلة لصوره....

وقد عمق مفردات اخلاقية عديدة كالصدق والامل والصبر والشجاعة والتضحية وجعلها وقوداً لازدهار الانسان الاخلاقي، كما رسم خطوطاً كثيرة لوصول الانسان الى رضا ربه كخط الشكر، والتذلل، والتوكل، والحب، والاخلاص.. وحل الاشكالية المؤذية بين ميل الانسان الى الانتماء لذاته او للمجتمع، واقام طلابه على معادلة مريحة متوازنة بينهما، وقد قوى اللحمة الاجتماعية، بدعوته لطلابيه للتسامح والحب، والتعاون، وعدم الاسراف والتورط في المطالب الكمالية التي يخلتها الراسماليون، كما وضع اسساً موضوعية جادة للحوار، ورسم قواعد لمنع الاختلاف او تجاوزه او تخفيفه. وباختصار فقد سعى الى بناء مجتمع يقوم على الحق بدلاً من القوة، وعلى ابتغاء رضا الله بدلاً من التزاحم على طلب المنافع، ويقوم ببناءه على البر

والتقوى لا على الصراع والجدل وتشدد لبناته الاخوة الدينية الجامعة
ولا تشتهه العنصريات وتهذب رغبات الانسان فيه ولا تطلقها بعشوائية
وفوضوية.

التربية العاطفية:

ادرك النورسي ان العواطف لا تغتال ولا تقتل ولا تصادر بل تحد لها
الضفاف وتوجه للبناء وتؤطر باطار من الحق والخير والعدل «نحن لا
نقول لك لا تحمل وداً ولا حياً انما نقول اجعل محبتك لما ذكرته في سبيل
الله ولوجهه الكريم» وأشار الى مكاسب التوجه الى الله في الحركة
العاطفية، الايمانية والاخلاقية والنفسية والمادية ..

فاذا كانت اللذة العاطفية السائبة ممتهنة بالابتذال الحسى ومتغصنة
بألم ترقب الزوال وتوقع الفراق وتوجسّ الفقد وغصص الفوات ووخز
أشواك الغيرة والحسد وحسرات عدم تبادل العاطفة بمثلها صفاءً
ودواماً، فان اللذة العاطفية المنضبطة بالايمان لذة نقية شفافة دائمة..

وقد حلل كذلك عاطفة الكره والخوف والرغبة تحليلاً سليماً.

التربية الجمالية في فكر النورسي

احساس الانسان بالجمال فطري أصيل ، والجمال في الكون اصيل
كذلك وكلي وشامل، وغائي .. ذلك ان كل شئ في الكون ينطوي
على الخير وفيه جمال وحسن. و«لمسات التجميل والتحسين رحمة
مرادة». وان هناك تفاضلاً في درجات الحسن ويميل الانسان الى
الاحسن والاجمل.. اما اللذات الجمالية فهي تتسم بالتنوع والشمول،
فهناك لذات حسية ، سمعية بصرية ، شمعية ذوقية، وهناك لذات

جمالية فكرية وروحية وعاطفية تتذوقها العقول والارواح والقلوب..
والاستمتاع بالجمال المشروع فيه فوائد جمه اذ ترقّ احساس الانسان
وتهذب مشاعره، وتطهر افكاره وتصفو نفسه ، وتسمو بعد ذلك نقيه
طاهرة الى خالقها..

ويحث النورسي الفرد المسلم على الانضباط بالضوابط الشرعية في
التمتع بالجمال لتكامل لذته، وتفتح امامه افق ملونة رحبة للحسن،
ولتأمن لذته من ألم التكدير وألم خوف الزوال..

وفي مقارنة لطيفة بين الادب القرآني والادب الغربي تكشف جمال
الاول وفضله وعاهات الثاني وسلبياته. يقول لنا النورسي مامعناه!

ان الادب الغربي يمجّد القوة ويؤلّه الطبيعة ويعبّد الانسان لها. وهو
يثير في القارئ معانى العبثية والضياع، وفقدان الهوية والانتماء ويؤصل
في وجدانه مشاعر العزلة والوحدة في الكون. وهو بشكل من الاشكال
- او وفقاً للذوق الاسلامي - غير منضبط اخلاقياً، ويعكس اهتزاز
القيم في العقل الغربي في عالم مابعد الحربين لذا فهو «قد وضع لساناً
كاذباً في فم البشر وركب عيناً فاسقة في وجه الانسان وألبس الدنيا
فستان راقصة». ولانه محروم من تذوق معانى العشق الحقيقي او الحب
الخالص فانه يغرّز ذوقاً شهوياً عارماً في النفوس ويشبه لقارته الشمس
بمثلة شقراء.

ومن سلبيات منظوره للواقع، الرؤية المادية الضيقة للواقع والمتجاهلة
لأبعاده الغيبية، فهو ينكر غيب الكون او يتعامل معه تعاملًا فلسفياً
بارداً او تجريبياً نفعياً، ويملأ تصور البعد الغيبي في الذات البشرية

بالظنون المزعجة والاهام الباطلة.. وادبه الكلاسيكي الذي يركز على الاساطير الكونية والتاريخية لم يوفق في الوصول الى مستوى الادب العالمى المؤثر من ناحية المضمون في الاقل، للتباين الشاسع بين منظور الانسان المعاصر للعلم والعالم والقيم وبين المنظور اليونانى او الرومانى الغابر المثقل بالرؤى البدائية المتخلفة للفكر والكون والحياة و اخلاقياتها « وائى للميت ان يهب الحياة » كما يقول النورسى، وهو واقع في تناقض حاد بين اخلاقيته المزعومة ومعقوليته، وبين تصويره المثير للقطعات الهابطة في النفس والمجتمع، هذا التصوير الذى ينسف رقابة العقل واحكام عالم الشعور، ويثير الهوى الكامن في نفس القارئ الذى لا تغنى في تلطيف اثارته القيم الباردة غير الملزمة النسبية والمهزوزة والحجلى التى يبثها الاديب الكلاسيكى هنا وهناك على صفحات ابداعه.. اما المشاعر التى يثيرها الادب الغربى فهى إما حزن كثيف معتم لا تخترقه اضواء الامل في المصير الاخرى او اللقاء المتجدد مع الناس والاشياء او السعادة في عالم اخر.. اما الفرح الذى تخلفه فهو يتسم بعدم البراءة ويدفع الى مزيد من التجاوز على الاخرين وعلى الحق، وتكدره توقعات الفراق وآلام الفوات ومشاعر الندم..

وهو بهذه الاوصاف يشير بشكل مجمل الى سلبيات كل من المذاهب الغربية الفنية الآتية: الكلاسيكية والوجودية والواقعية والطبيعية.

وقد وضع النورسى ادب القرآن قبالة ذلك الادب الغربى فبدا عملاقاً رصيناً متوازناً انسانياً اخلاقياً شاملاً، فهو ادب توحيدى يخلق الطمأنينة، ولا ينصب علامات الاستفهام على طريق القارئ، فلا حيرة

ولاشك ولا اغتراب.. فانسان هذا الادب قد تكشفت له دلالات القدرة والحكمة والعناية والرحمة واليقين في هذا العالم وانشد بكل وعى واختيار الى منظومة الحقائق الاسلامية المتناسقة والصادقة والشاملة وامتلأت نفسه رضى وانساً ووداً وسكينة.

ادب القرآن ذو منظور اخلاقي.. انه لا يحرك ساكن الهوى، وينشد الحق والجمال الخالص ويتبنى الصدق.. فرحه فرح «لطيف برئ نزيه» يبعث على الفضيلة ويقود الى الكشف ويومئ باصبع النور الى عالم الفرح الشامل والغبطة الجذلى، وحزنه رفيع شفاف خالص متوجه الى السماء مترع بالرجاء ملئ بوعود اللقاء.. انه ادب الحقيقة بمعناها الشامل لوحى الله واجتهاد الانسان، ومنظوره للواقع يتسم بالشمول اذ يستوعب المحسوس المجرب والمخبوء المغيب في الكون والحياة والانسان، وهو يدعو الانسان الى تعامل مع هذا الواقع الكلى بمعادلة اليقين.

التربية البدنية :

لم تسمح حالات النفى والاقامة الجبرية والسجن التى عانى منها النورسى بالاهتمام الكافى بهذا البعد التربوى بشكل متكامل ولم تسمح لروحه الجهادية المتوثبة وديناميته الجسدية المتدفقة التى كانت قد وجدت لها مجالاً رحباً في الجهاد ضد العدو ان تنطلق فيما بعد لإعداد جيل اقرب الى التكامل المثالى. وحسبه تأكيد على نقاط مهمة في التربية الجسدية. منها: ضرورة تحديد كمية الطعام المتناول والنهى عن الاسراف، والربط بين السلوك الاخلاقي المنحرف والامراض العضوية، والتركيز على اهمية العلاج المادى للامراض، والارشاد الى العبادة وبيان اهميتها لسلامة الجسد، والاشارة الى اهمية الطب

الروحي والنفسي في الشفاء من الامراض، والاسهاب الرائع في بيان
حكم الامراض المتنوعة.

التربية الارادية:

احترم النورسي ارادة الانسان ونظر اليها نظرة قرآنية وسطية بين
المذاهب الفلسفية التي تلغى هذه الارادة تماماً او تضخمها حتى
تتحدى الضرورات القدرية البشرية والكونية الصامدة، فهي ارادة
جزئية يمكن تقويتها بالايمان المتمحور كنقطة استناد واستمداد،
وبممارسة التدريب الارادي الخاص بالامتناع عن السلوك الفطري
المباح، والتدرب على الاعمال الايجابية، والتكيف مع الصبر على
الطاعة والبلاء وعن المعصية...

وكان النورسي بالوعد الذي كان يشير اليه في السعادة الصافية
الدائمة في الآخرة وبالتلويح بالتوبة في حالة الوهدة يمنع الارادة من
الترهل والموت، وباساليبه الايحائية المؤكدة على كرامة الانسان وعزته
وتهافت قوة اعدائه وتأييد الله سبحانه للمؤمنين يزيد الارادة اشتداداً،
وبيانه لحكم المصائب يزيد الاختيار انتعاشاً، كما كان لمنطقه العقلي
المقنع وخطابه الادبي الممتع وما كان يرشد اليه من الاشكال الشعائرية
والصيغ الروحية كالاتعاذة من الشيطان والاستغفار واهمال الوسوس
وعدم بعثرة قوى الصبر في جوانب غير اساسية وخيالية؛ دوراً في ادامة
نشاط الارادة الحرة، اما تحذيراته من اليأس والقنوط والطمع وحب
الظهور والخوف والحزن والاستعجال والاستبداد بالرأى والتقليد
والتسويق والراحة والاسراف والرياء والعجب والانانية فكانت تصوغ
من الارادة خلقاً اخر يتحدى الوهن والتآكل والتفتت.

من وسائل التربية ومفاتيحها النورية :

- ١- الثقة المتفائلة بالانسان.
- ٢- توجيه الخطاب الى العقل والقلب والروح معاً.
- ٣- الدعوة الى التعلم من الطبيعة واستنباط الحكمة من كتاب الكون.
- ٤- ضرب الامثال.
- ٥- تجريد الخطاب التربوي من المقاصد الدنيوية ليغدو اكثر فعالية.
- ٦- تقوية البصيرة الاخلاقية للمتربى ليغدو قادراً على مواجهة تيار الدمار.
- ٧- خلق الحس النقدي لدى المتربى ودعوته الى الحضور الفكري اثناء التلقى (خذ ما صفا دع ما كدر).
- ٨- وضع نموذج النبي ﷺ للحث على الاقتداء به.
- ٩- استعماله كل وسائل التربية المتاحة لتوصيل المضامين المعرفية ومنها التربية بتفريغ الطاقة وبالعقوبة وبالوعظ وبالقصص بانواعها وبالقدوة الشاخصة.
- ١٠- ابرازه لخصوصية التربية النسوية. فقد اعتبر النساء مخلوقات طيبة مباركة، ونعى على التربية الغربية او المتغربة التي لم ترفي المرأة سوى هيكلها المادي وجمالها الحسي، متجاهلة الاهتمام بتجميل روحها وهندسة خلقها وترقية شعورها وتأصيل ابداعها

الفكرى والادبى والعلمى والفنى، وحذر من الجهات الخفية
التي تخطط لدفع المرأة الى مساقط الرذيلة.. كما اكد على
تربية الطفل تربية اسلامية صحيحة.

من السمات المنهجية لرسائل النور:

- ١- اعتماد الكتاب والسنة الصحيحة مصدرين معصومين، ونفى
العصمة والكمال عن المضامين المعرفية المتحصلة بطرق اخرى
عقلية او روحية.
- ٢- تقديم اجتهادات الصحابة على ما تم بعد عصرهم من
اجتهادات.
- ٣- عدم جعل العلم او العقل بما يحمله من طوابع النسبية
والقصور حكيم على الحقائق الدينية اليقينية.
- ٤- الاستشهاد بالمعطيات العلمية الزمينة لتأصيل قضايا الايمان
وتوصيل مناهج الاسلام وبيان محاسنه.
- ٨- احترام الحدود الفاصلة بين عالم الغيب غير المسموح نصاً
باختراقه وبين عالم الشهادة المسخر للاكتشاف والاستثمار.
- ٩- التعبير الادبى عن بعض الحقائق الدينية وبما يحمله من مجازات
لغوية.
- ١٠- الاسلوب السهل الممتنع والغامض احياناً والتكرار لبعض
الافكار في صيغ مختلفة والانتقال من المحسوس الى المعلوم.

النورسي مريباً :

من الاداب اللطيفة التي التزم بها النورسي في فعله التربوي بدؤه بنفسه باستكمال نواقصها ثم الشروع في عمله، والاستعلاء على المديح والنقد، والتواضع ونقد الظواهر غير الصحيحة بالبرهان والحوار، واتخاذ التسامح شعاراً له، وعدم اخذه باجر على تعليمه، ومخاطبته الناس على قدر عقولهم، وعدم انقطاعه عن التربية حتى في السجن الذي سماه المدرسة اليوسفية، وعدله في تعليمه مع كل الطلاب حتى لو كانوا ابناء اعدائه.

وبعد فقد طرح هذا المفكر كل ما قدر له ان يطرحه بشروط عصره ..

فسلام على روحه المرآتية الشفافة التي عكست لنا نقوش الايمان ومعالمه البهيجة.

وسلام على وجدانه المولع بالجمال والكمال ..

وسلام على عقله الذي جدد الطرح الايماني في تركيا.

وسلام على طلابه السابقين واللاحقين مع دعوة لهم لمزيد من التجديد والتعميق والتخصص والتأصيل والتبليغ لمفاهيم الفكر الاسلامي.

وسلام على الحضور الطيبين ..

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين



الدكتور عبدالودود ابراهيم شلبي

- تعلم في الأزهر حتى حصوله على درجة الماجستير.
- اكمل تعليمه العالي في جامعة كمبردج و «أورينتال» في جامعة بنجاب.
- شغل مناصب عديدة في مصر والعالم الاسلامي. كما كان مديراً للمركز الاسلامي في مدينة سيدني باستراليا.
- آخر وظيفة شغلها هي وظيفة الامين العام للمجلس الاعلى للدعوة في الأزهر.
- شارك في اكثر من سبعين مؤتمراً اسلامياً في آسيا وافريقيا وأوروبا واستراليا.
- عضو اتحاد الكتاب المصريين. والمجلس العالمي للدعوة الاسلامية في باكستان وجمعية الدعوة الاسلامية في السودان. وعضو مؤسس في المجلس العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية. له اكثر من خمسة عشر مؤلفاً باللغتين العربية والانجليزية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامام بديع الزمان
سعيد النورسي

المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد
والاصلاح

الامام بديع الزمان سعيد النورسي ..

اسم لا يكاد يسمع به في عالمنا العربي الا النذر القليل.

ان أمة «اقرأ» لم تعد تقرأ! والجهالة تزحف من كل ناحية على
المسلمين والعرب ..

وهل يصدق عاقل ان خبيراً في شؤون التعليم والثقافة لا يعرف اين
مات واين ولد النبي محمد ﷺ؟ لقد كان هذا الخبير الاستاذ الدكتور
يعتقد ان النبي مدفون في الكعبة! واذا كان هذا هو الشأن مع أهم
وأعظم انسان عرفه المسلمون والعرب، فماذا يكون الحال مع آخرين من
الأئمة والمصلحين من غير العرب؟! (*)

* * *

عندما كنت أميناً عاماً للدعوة الاسلامية في مصر، طلبت شراء
مئات من كتاب تاريخ الامام النورسي الذي كتبه الاخ الاستاذ احسان

قاسم الصالحى، لقد فوجئت بالكثيرين يسألون عن السبب في شراء هذا الكتاب. ومن يكون « سعيد النورسى » هذا؟ وفي اى البلاد نشأ؟ وهل هو شاعر أم كاتب؟ فقيه أم فيلسوف؟ هندی أم عربی...؟! هذه الاسئلة كشفت عن اسباب « السقوط » الذى انتهت اليه الامة. وكل اسباب التخلف والانهييار الذى يتهدد وجودنا وكياننا بأكبر كارثة.. وما يحدث في « البوسنه والهرسك » خير شاهد على هذه المصيبة..!

* * *

لقد اخترت لبحثى في هذا المؤتمر عنواناً هو :
الامام سعيد النورسى

المصلح الذى تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والاصلاح
كما حددت للكتابة في هذا البحث أربعة عناصر هى :
* العصر الذى نشأ فيه ..

* التيارات الاصلاحية التى كانت سائدة في عصره

* المنهج الذى اختاره ..

* الدور الذى قام به ..

ترى.. أكنت مغالياً في هذا الاختيار؟ وفي تحديد عناصر البحث
المشار إليه في هذا المقال؟

* * *

كان القرن التاسع عشر من أسوأ القرون التي مرت بها الأمة الإسلامية وكان من سوء حظ الأتراك والمسلمين معاً أنهم أخذوا في الانحطاط والتدني، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم من البغضاء والتحاسد واستبداد الملوك وجورهم، وسوء تربيتهم، وفساد أخلاقهم، وخيانة الولاة والأمراء، وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة والدعة، وتفشي الجهل والخرافة...»... وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى، فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والأدب، والرياضة، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية، فنظر الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا والطبيعة والكيمياء، كأنها الكفر البواح، أو السحر المزيف، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف، وطلبوا الخلاص من غير بابه، وتوسلوا للعمل بغير أسبابه، واتهموا الناصحين، واسلموا مقادتهم للدجالين والمحتالين، وفي هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء مزيجاً من الخرافة والشعوذة، ومن الطلاسم والأوهام ومن الوثنية وعبادة الموتى وكان طلاب الفتوى – من مشارق الأرض ومغاربها – يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه؟ وهل يجوز قدح النار منه؟ أو طبخ الطعام على ناره؟ أو يأثم من يمسه صنفرته، لانه مادة نجسة تنقض الطهارة»^(١).

ومع كل هذه العلل.. فقد كانت الامبراطورية العثمانية قلعة للإسلام ولم تكد هذه القلعة تنهار، ويصيبها الوهن والضعف حتى فتح الباب على مصراعيه أمام الغرب، وانطلق البخار المسموم من مراحل الحقد ليهدم كل من يقف في طريقه إلى الشرق..

* * *

كانت النازلة شديدة، والكارثة كبيرة، والمعركة ضد الاسلام
والمسلمين ضاربة عنيفة، كانت هذه الايام والسنوات كما يقول المؤرخ
الجبرتي: (٢)

(... اول سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة والوقائع
النازلة، والنوازل الهائلة، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس
المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الاحوال،
وعموم الخراب، وتواتر الاسباب، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم
واهلها مصلحون). (٣)

* * *

وبدأ رد الفعل. وكان للتصرف الاستعماري البغيض والتعصب
الصليبى المقيت أثره السريع في الانتفاض واليقظة، واعلان الجهاد
والثورة، وكانت السمة الدينية لزعماء الجهاد والاصلاح ظاهرة في كل
شعب.. وحركة.. وفي الحالات الاستثنائية التى برز فيها قادة مدنيون
او عسكريون نجد انهم - في الاصل - نشأوا نشأة دينية، او مروا
بمرحلة من مراحل التعليم الاسلامى في مسجد او جامعة..

كان الدين هو القوة المحركة الوحيدة في هذا الوقت. وكان العلماء
هم الجزء الحى في جسم الامة الميت.. وكما ان السيف والقيثارة قد
اجتمعا في عصور الوثنية - قبل البعثة النبوية - فكذلك اتحد في
الاسلام العلم الدينى.. بالنبوغ الحربى..

ومن يمثل هذه الظاهرة الفذة في تاريخ الاسلام الحديث «شامل»
بطل الاستقلال القوقازي، والمهديون الحريون الذين ظهروا في
السودان^(٤) والصومال.

* * *

في تاريخنا الاسلامي... كانت هناك ثلاث حركات تكاد تكون
متشابهة بل تكاد تكون متطابقة. كان لكل حركة من هذه الحركات
دورها وأثرها في الحفاظ على عقيدة الامة، وعلى بقائها صافية نقية،
وعلى تجنبها مخاطر التفتت والذوبان، في عقائد اخرى زائغة، او
السقوط في شرك الحضارة الوثنية القائمة..

اقدم هذه الحركات الثلاث هي حركة الامام المجدد المجاهد الزاهد
الشيخ احمد بن عبد الاحد الفاروقي السرهندي الملقب بمجدد الالف
الثاني للهجرة - في الهند.

وثاني هذه الحركات هي حركة الامام الشيخ عبد الحميد ابن باديس
في الجزائر.

وثالث هذه الحركات هي حركة الامام المجاهد بديع الزمان سعيد
النورسي في تركيا.

* * *

كانت حركة «ابن باديس» تجسيدا للمقاومة والثورة ضد الاستعمار
الفرنسي الذي حاول طمس وتغيير كل ما هو اسلامي او عربي في
الجزائر. ألم يعلن الكاردينال الفرنسي «لافيجري» ان الجزائر لم تعد
مسلمة. وان الجزائر اصبحت مهذا للمسيحية، وان اجراس الكنائس

يجب ان تعلق لتحل مكان الأذان في اى مسجد او زاوية ا
وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم، ويطلع الفجر من بين ثنايا
الظلام والليل استيقظت الجزائر كلها على صوت الشيخ عبد الحميد ابن
باديس وهو يعلن بأعلى .. صوت:

شعب الجزائر مسلم * والى العروبة ينتسب
من قال حاداً عن اصله * او قال مات فقد كذب
او رام إدماجاً له * رام المحال من الطلب

وقد سلك في ذلك طريق التعليم والتربية، والوعظ والدعوة،
والنشر، والصحافة ..

كانت حركة الشيخ بن باديس معاصرة لحركة الشيخ سعيد . فالشيخ
سعيد ولد في عام ١٢٩٣ هـ . بينما ولد الشيخ بن باديس في عام
١٣٠٨ هـ .

اي ان الشيخ سعيد كان اكبر من الشيخ بن باديس بحوالى خمسة
عشر عاماً .

وبينما توفى الشيخ عبد الحميد بن باديس مبكراً اى في عام ١٣٥٩
هـ فقد توفى الشيخ سعيد متأخراً اى عام ١٣٧٩ هـ ...

* * *

غير اننا نرى في حركة الامام « احمد السرهندي » تطابقاً كاملاً مع
حركة الامام سعيد النورسى .. من حيث الظروف التى نشأت فيها
والمشكلات التى واجهتها، والنتيجة التى انتهت اليها كل منهما .

فالامام « السرهندي » نشأ في عصر اسوأ ملوك الاسلام في الهند قاطبة .. في عصر الملك « اكبر » .. ذلك الملك الغر الذي اراد ان يقضي على الاسلام في الهند قضاء مبرماً والى الابد .. ا ا ا

وان يضع ديناً جديداً مقتبساً من شعائر الوثنية ورسومها يتخللها شئ من تعاليم الاسلام وتوجيهاته . والذي حمله على اقتراف هذه الجريمة الشنعاء، حرصه على بقاء الملك والتحجب الى اهالي البلاد من الهنادك، وزعمه الفاسد بأن هذا الصنيع يقربه اليهم ويرفع مقامه في أعينهم ويحله محل الصدارة من قلوبهم . فأختار لذلك طرقاً عديدة ومناهج متشعبة .

منها تزوجه من بنات امراء الهنادك مع بقائهن على عقائدهن وتمسكهن بدياناتهن وادائهن لشعائرن في القصر الملكي .

ومنها تخلقه باخلاق الوثنيين وعاداتهم وتقليدهم في ملابسهم . وقد بلغ منه الكره والعداء للاسلام ان كان يسمى الخدم والفراشين باسماء النبي ﷺ (احمد ومحمد) ، تحقيراً لشأن الرسالة وغضاً من كرامتها .

وكذلك استبدل بالتقويم الهجري الاسلامي تقويماً جديداً سماه التقويم الالهى ، يبتدىء بسنة جلوسه على سرير الملك .

ومن بدعه انه احل الخمر والقمار وغيرهما من الخبائث والمنكرات واعانه على ذلك علماء السوء في عصره من عبيد الدينار والدرهم ، فزينوا له ما سؤلّه له عقله المعتوه ، وجعلوه يستيقن من نفسه العصمة ، وقدموا اليه عريضة - تسمى محضراً باللغة الفارسية - تثبت للملك

الغرة العصمة وتخوله الحق في ان يشرع من القانون ما يشاء ويضع من الاحكام ما يريد الى غير ذلك من الاباطيل والخزعبلات التي تضيق هذه العجالة عن سردها.

وجملة القول ان هذه البدع والمنكرات ما كانت الا مقدمة لما كان عقد العزم عليه من وضع دين جديد ينسخ به دين الله الخالد بزعمه، ظنا منه ومن خواص أشياعه ان هذا الدين (الاسلام) الذي جاء به محمد العربي - و«البدوي» حسب تعبير اولئك الزنادقة، قد مضى عليه الف سنة، والعصر الجديد يومئذ في حاجة الى دين جديد يوافق ميول اهل العصر واهواءهم ونزعاتهم. فاعلنوا دينهم الجديد وسموه (الدين الالهى).

وكان شعارهم في ذلك (الله اكبر) يريدون به ان هذا الملك الضليل المعتوه (اكبر) هو الله.. !!

فكان من اثر كل ذلك ان اصبح عصر هذا الملك المأفون (٩٦٤ - ١٠١٤ هـ) عصر بلاء ومحنة للاسلام والمسلمين في هذه الديار اتسع فيه الخرق على الراقع وجاوز السيل الزبى. فاضطهد من اضطهد من عباد الله، وحبس، واعتقل من اعتقل. الا انه مما يؤلم القلب ويدمع العين انه قد زلت في هذه الفتنة العمياء اقدام الخاصة والعامة ولم ينبج من شرها حتى من كان يعد من كبار العلماء الفقهاء في ذلك العصر، فلم يثبت في تلك المحنة الكبرى الا عدد قليل منهم جدا. اما جمهور العلماء والعدد الغالب منهم، فقد استسلموا لامر الملك وجبروت السلطان القاهر ولم يتخرجوا من التوقيع على (المحضر) الذي ادعى للملك العصمة وخوله الحق في وضع الشريعة.

لما آل الامر الى ما تقدم بيانه من غربة الاسلام في هذه البلاد،
والتضييق على المسلمين واضطهادهم، واصبح مثل القابض على الدين
من بينم كمثل القابض على الجمر.

وقف الرجل الذي قبض الله ان يقف في وجه هذا الطاغية وانصاره
الضالين المضلين، ويرفع لواء افضل الجهاد، ويصدع بكلمة الحق،
ويكبح جماح غوايتهم، ويقضى على بدعهم وشروهم قضاء مبرماً.
فقام الامام المجاهد العالم الزاهد الشيخ احمد ابن عبد الاحد الفاروقى
السرهندى^(٥) الملقب بمجدد الالف الثانى للهجرة^(٦) بالجدارة
والاستحقاق، وشمر عن اذياله لمقاومة الفتنة الاكبرية ورد مكاييد اعداء
الاسلام، وتهذيب نفوس اهل الغواية وجاهد في ذلك جهاداً موفقاً
مبروراً حتى انجحه الله في مساعيه^(٧)، وقضى قضاء مبرماً على فتنة
هذا الملك المعتوه وحوارييه.

* * *

واذا كان الاسلام هو دين « التوحيد » فهو كذلك دين الوحدة ..

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (سورة الانبياء: ٩٢).

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا
كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (سورة الروم: ٣١ - ٣٢)

واذا كان الاسلام قد قضى على الوثنية والشرك .. فهو كذلك قضى
على الفرقة والخلاف الوريثين الحقيقيين لهذه الوثنية وهذا الشرك.
وفي ذلك يقول النبى محمد ﷺ: (لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب
بعضكم رقاب بعض).

* * *

ولم يبتل المسلمون قديماً وحديثاً بمثل هذا التمزق، والتفريق،
والتعصب لمذهب على حساب مذهب، حتى روي ان شافعيّاً سئل:
عن حكم الطعام الذي وقعت عليه قطرة من النبيذ فقال اي الشافعي:
يرمي - اي الطعام - لكلب او لحنفى ١٠٠

كما سئل رجل حنفى: هل يجوز للحنفى ان يتزوج المرأة الشافعية؟
.. فقال اي الحنفى: ان ذلك لا يجوز لانها تشك في ايمانها..

وقال حنفى آخر: يجوز زواجها قياساً على زواج اليهودية
والنصرانية.. ١١٠

ومن أسوأ صور هذا التعصب ما قاله الشيخ ابو الحسن عبد الله
الكرخى الحنفى قال:

كل آية او حديث تخالف مذهبنا فهى إما مؤولة او
منسوخة (٨) ١١٠

* * *

وحتى يومنا هذا لا يزال بين المسلمين من يرى الامامين الجليلين ابن
تيمية وابن القيم ضالين .. مضلين .. ١١١

وحتى يومنا هذا لا يزال بين المسلمين من يرى الصوفية والتصوف
شركاً وخرافة.. ١١١

وحتى يوماً هذا لا يزال بين المسلمين من يرى ابن عربى كافراً
ومرتداً.. ١١١

وحتى يومنا هذا لا يزال هناك كثيرون يرمون الشيعة الامامية
بالحجارة ، ويتهمونهم بالكفر والزندقة.. ١١١

لقد وقف بديع الزمان امام هذه الخلافات كلها موقف القاضي العادل . وتجاوز كل هذه الخلافات التي افرزها الجهل والتعصب القاتل ووازن بين هذه الآراء كلها بميزان الحق الذي لا يميل الى جانب دون آخر..

يقول الاستاذ احسان الصالحى (٩):

« تدعو رسائل النور الى نصب ميزان العدالة الالهية الذي يزن به الله سبحانه اعمال المكلفين يوم الحشر، والى اقامته في الدنيا كذلك عند ذكر الاشخاص او الجماعات .

لذا ترى انها عندما تضع موازين وقياسات بين المختلفين في أمر ما، لا تنحاز الى جهة دون اخرى ولا تغمط حق احدهما دون الآخر. فتذكر الحسنات والسيئات وتذكر الاسباب الداعية الى الاخطاء، بدراسة العوامل المؤثرة مع عوامل المحيط .. وغيرها من الامور...

هذا دأب الرسائل في الخلافات التاريخية سواء بين مفكرى الاسلام او بين الجماعات او اى شكل من اشكال تلك الخلافات، وبدراسة النص الآتى يتمكن القارئ ان يللم ببعض الجوانب التحليلية الدقيقة والموضوعية الخالصة لنظرة رسائل النور الى اى خلاف كان من الخلافات الفكرية في التاريخ:

لا يمكن لاحد ان ينكر فضل « اهل السنة والجماعة » في حفظ الحقائق القرآنية والايمانية والسنة النبوية الشريفة على المحجة البيضاء كما تركها الرسول ﷺ فالعالم الاسلامى بأسره مدين لهم، معترف بفضلهم عليه، جزاهم الله عن امة الايمان والاسلام كل خير... وبركة

هذا العمل العظيم كانت الاكثرية المطلقة من الاولياء الصالحين قد ظهرت من بين صفوف هذه الجماعة المباركة... ولكن شوهده وعرف اولياء آخرون في طريق تخالف اصول السنة والجماعة، وخارجة عن بعض قواعدهم وطرائقهم...

لقد انقسم الناس - في شأن هؤلاء الاولياء - الى ثلاثة اقسام:
القسم الاول: وهم الذين انكروا ولايتهم وصلاحتهم، وذلك لمخالفتهم اهل «السنة والجماعة»... بل قد ذهبوا الى ابعد من الانكار حيث كفروا بعضهم...

القسم الثاني: وهم الذين اقرروا بولايتهم ورضوا عنهم واتبعوهم، ودافعوا عن طريقتهم قائلين:

«ان الحق ليس محصورا على سبيل اهل السنة والجماعة»... فشككوا بهذا القول والاعتقاد فرقة مبتدعة، وانساقوا الى الضلالة ناسين ان المهتدي لنفسه ليس من شرطه ان يكون طريقا لهداية الآخرين... فان وجد من يعذر شيوخهم على اخطائهم وشطحاتهم لانهم مجذوبون، الا ان اتباعهم ليس لهم العذر في اتباعهم في الصواب منهم والخطأ...

القسم الثالث: وهم الذين سلكوا طريقاً وسطاً، حيث لم ينكروا ولاية اولئك وصلاحتهم، الا انهم لم يرضوا بطريقتهم ومنهجهم...

وقالوا: ان ما تفوهوا به من الاقوال المخالفة للاصول الشرعية، اما انها

نية - عليهم، مما جعلهم في

صحة نية - عليهم، مما جعلهم في

صحة نية - عليهم، مما جعلهم في

صحة نية - عليهم، مما جعلهم في

اما اصحاب القسم الاول - وبالاخص علماء اهل الظاهر - فقد انكروا بنية الحفاظ على طريقة اهل السنة - ولاية اولياء عظام ورفضوها مع الاسف - ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا - مضطرين - الى ابعاد منه فحكموا بضلالتهم ..

اما اصحاب القسم الثاني: وهم المتطرفون بتأييد شيوخهم وقبول كل مايجئ منهم، اقبلوا على طريقهم، واداروا ظهورهم لطريق الحق وعافوها لما يضمرون من حسن الظن المفرط بشيوخهم، حتى انجرف البعض منهم الى الضلالة دون ان يشعر...» ..

هذا وقد يتبادر الى ذهن القارئ: مارأى رسائل النور في كل من شيخ الاسلام «ابن تيمية» وتلميذه المخلص «ابن قيم الجوزية» وهل لهما ذكر في الرسائل، ثم ما رأى الرسائل كذلك في الشيخ محي الدين بن عربي وطريقته؟؟

ونحن - حرصاً على الاختصار - نقتطف هذه الفقرة التي يذكر فيها الاستاذ النورسي الشيخ ابن تيمية وابن قيم الجوزية في رسالة ارسلها الى احد تلاميذه وهو في «امير داغ» فيصفهما بـ «الجهبذين الداهيين» و«المثيرين للاعجاب» و«المشهورين» يصف كتبهما كذلك بانها من المؤلفات ذات الجاذبية القوية جداً والعجبية جداً (... انه منذ فترة نرى - بين العلماء في استانبول - تتداول مؤلفات عجبية جداً ذات جاذبية لابن تيمية وابن قيم الجوزية اللذين هما من الجهابذة الدهاة المشهورين المثيرين للاعجاب) ..

اما بالنسبة الى الشيخ محي الدين بن عربي، فسنتطفف فقرتين من رسالتين مختلفتين: احدهما تحلل شخصيته والاخرى طريقته:

« لا يسعني الوقت الكافي لوضع ميزان بين الافراط والتفريط بحق هذا الشخص فأكتفى بما يأتي :

انه - اى محي الدين بن عربي - لا ينبغي ان يكون مرشداً او قدوة في جميع ما كتبه، رغم انه شخص مقبول ومهتد...

ولكن لمخالفته القواعد الثابتة لأهل السنة فانه يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، لذا افادت بعض أقواله - ظاهراً - الضلالة، غير انه برئ من الضلالة، والكلام قد يبدو كفراً بظاهره ولا يكون القائل به كافراً...»

ويحدد رأيه في كتبه ختام الرسالة نفسها قائلاً:

(لذا فان قراءة كتب محي الدين مما يضر في زماننا هذا، وبالاخص آراءه في وحدة الوجود) (١٠) ..

* * *

كان منهج الامام بديع الزمان في مواجهة هذه الخلافات والتناقضات هو منهج الامام الغزالي في مواجهة هذه الخلافات والتناقضات التي كانت سائدة في عصره. كانت له افكاره الخاصة، ومواقفه المستقلة التي خالف فيها من قبله حتى من اهل مذهبه..

فالامام الغزالي خالف الاشعري في بعض مسائل الكلام..

وخالف امامه الشافعي في بعض مسائل الفقه، كما نرى ذلك في (الإحياء) في مسألة (المياه) التي قال: كنت اود ان يكون مذهبه فيها كمذهب مالك، وايد مذهب مالك بسبعة ادلة (١١) ..

وخالف المتصوفة في شطحاتهم وتهويماتهم غير المنضبطة بالشرع ولا بالعقل .

فقد انكر في (الاحياء) الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغنى عن الاعمال الظاهرة، حتى ينتهى بقوم الى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا: كذا، ويتشبهون فيه بالحسن بن منصور الحلاج، الذى صلب لاجل اطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: انا الحق! ... فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشئ منه، فقتله افضل في دين الله من احياء عشرة!

وكانت مخالفته للاشعري مما اثار حوله غباراً كثيفاً حتى اتهم بالزيغ بل بالكفر، حيث طعن عليه طائفة (من الحسدة) بأن في بعض كتبه ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وان العدول عن مذهب الاشعري - ولو في قيد شبر - كفراً، ومباينته - ولو في شئ نزر - ضلال وخسر! (١٢)

وقد واجه هذه الحملة العنيفة بتصنيف كتابه (فيصل التفرقة الاسلام والزندقة) ..

* * *

لم يكن اهتمام الامام بديع الزمان سعيد النورسى بالسياسة اهتماماً سياسياً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، بل كان اهتمامه بها اهتمام المسلم المعذب بشجون امته، ذلك لان السياسة بمعناها المعروف في

هذا العصر تعنى التحدث عن شئ.. ثم العمل على نقيض هذا الشئ..

فالسياسة في الاسلام مرتبطة بالعقيدة، وبالاخلاق وبالقيم التي تنادى بها هذه العقيدة، والامام بديع الزمان كان في تصرفه وسلوكه تجسيدا لهذه العقيدة وهذه القيم والاخلاق التي تنادى بها هذه العقيدة.. ان القضية كلها كانت تدور حول المفهوم الدستوري لمعنى حديث الرسول ﷺ « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .. لأن معنى هذا الحديث يفرض على كل مسلم ومسلمة الجهر بكلمة الحق .. والتدخل لاعلاء كلمة الله في الارض، والسعى بكل الوسائل لرفع راية الاسلام وشريعته في دواوين السلطة والحكم.

ولم يكن الامام سعيد النورسي يختلف في هذا الشأن عن جمال الدين الافغانى. كلاهما جهر بالحق وكلاهما صرخ في وجه الطغاة والظلمة: ان كفوا عن ظلم الرعية والشعب..

غير ان الجانب الفكرى والتربوى كان هو الغالب في منهج الامام بديع الزمان.. وهو المنهج ذاته الذى اختاره الشيخ محمد عبده بعد انفصاله عن السيد جمال الدين الافغانى حتى قال الشيخ محمد عبده في ذلك كلمته المشهورة:

لعن الله السياسة، وما تفرع منها من ساس، ويسوس، وسائس...!!
كانت اهم وسيلة لاصلاح العقيدة في نظر الشيخ محمد عبده هي تفسير القرآن الكريم..

كان يقرأ الآية فاذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً، عارضاً ما ورد في القرآن الكريم في موضوعها، مبيناً ما دخل على المسلمين في هذه العقيدة من فساد ودخيل، واذا اتصلت الآية بالاخلاق أبان أثر هذا الخلق في صلاح الأمم وضياعه في فسادها، واذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية في حياة الأمم مسترشداً بالواقع وبما يجري في العالم. فهو تفسير عملي يشرح الواقع ويبين سببه، وهو تفسير اخلاقي يدعو للعمل على مبادئ الاسلام، وتفسير روحاني يدعو الى السمو بالنفس الى العالم العلوي.. (١٣)

هذا المنهج هو الذي اختاره الاستاذ الامام في تفسير المنار..

وهذا المنهج نفسه، هو الذي اختاره الشهيد سيد قطب في « ظلال القرآن ». كما اختاره شيخ الازهر السابق الشيخ محمود شلتوت في تفسيره للقرآن الكريم.. واختاره بعد ذلك كثيرون في مختلف اقطار الاسلام..

وهذا المنهج في تفسير القرآن، هو المنهج نفسه الذي اختاره الامام بديع الزمان ...

لقد وصف الاستاذ الرسائل بقوله:

« ان رسائل النور برهان للقرآن الكريم، وتفسير قيم له وهي لمعة براءة من لمعات اعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنز العلم، وترجمة معنوية نابغة من فيوضاته »..

« فهي ليست كالمؤلفات الاخرى التي تستقى من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن الحكيم ولا ترجع الا اليه، فلم يكن عند المؤلف اى كتاب حين تأليفها ».

« واذا قيل: كيف تعد رسائل النور تفسيراً للقرآن الكريم مع انها لا تشبه التفاسير المتداولة؟

فالجواب: « التفسير نوعان » ..

الاول: هو تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة.

والآخر: اثبات الحقائق الايمانية للقرآن الكريم اثباتاً مدعماً بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة.

وقد ثبت بشهادة ألوف من العلماء المحققين ان رسالة النور هي من هذا القسم « الثانى » من التفاسير بل من أئمنه واسطعته وأكمله وأكثره قيمة... (١٤)

* * *

لقد ولد بديع الزمان النورسى في عقد واحد مع العلامة الدكتور محمد اقبال. كلاهما ولد في سبعينيات القرن التاسع عشر.

صحيح ان بديع الزمان كان أسبق سنأ وأطول عمراً... (١٥)

غير ان موقفهما من الحضارة الغربية كان موقفاً واحداً، كلاهما لم تخذعه الظواهر البراقة الزائفة، وكلاهما لم تغره طبول الدعاية الكاذبة. لقد نظرا الى جوهر الحضارة وروحها. وتعمقا في فهم خفاياها واسرارها.

لم يكن موقفاً ضد التقدم او العلم . ولم يكن موقفاً ضد التحرر من الظلم ..

ان هذا كله جزء من عقيدتنا . والاسلام هو الدين الوحيد الذي جعل طلب العلم فريضة من فرائض ديننا ..

فموقف العلامة اقبال ، وموقف بديع الزمان بعبدان كل البعد عن هذا التصور ، فليس من المعقول ان يقف الاسلام من العلم موقف التناقض ، وكيف يتصور ذلك بينما كانت معجزة هذا الدين الكبرى كتابا كانت اول كلمة اوحى بها هي كلمة « إقرأ » ..

وانما نعنى هذه الحضارة التي :

« ... تنشر الكفر وتبث الجحود ، ترى هل يمكن ان يسعد انسان مجرد تملكه ثروة طائلة وترفله في زينة ظاهرة خادعة ، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة ؟ وهل يمكن ان نطلق عليه انه سعيد ؟ !! الا ترون ان من يئس من امر جزئي ، وانقطع رجاءه من امل وهمي ، وخاب ظنه من عمل تافه ، كيف يتحول خياله العذب مرأً علقماً . وكيف يتعذب مما حوله من اوضاع لطيفة ، فتضيق عليه الدنيا – كالسجن – بما رحبت .. فكيف بمن اصيب بضربات الضلالة في اعماق قلبه ، وفي اغوار روحه ؟ وهل يمكن ان يطلق لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة .. انه سعيد ؟ (١٦) »

أليس هذا بعينه ما قاله « اليكس كاريل » في كتابه (الانسان ذلك المجهول) ..

وان هذا هو ما حذر منه توينبي في تحليله لهذه الحضارة.
وهذا هو ما تنبأ به (اليكس كاريل) - الفرنسي - قبله.
وقد ظهرت في الآونة الأخيرة المئات من الكتب والبحوث التي تنبأ
بقرب سقوط هذه الحضارة كما سقطت قبلها حضارات كثيرة..
«... ان - اوربا - كما تنبأ العلامة الدكتور محمد اقبال تنتحر
والروح تموت عطشاً في سرابها الخادع فيها حضارة.. نعم ولكنها
حضارة تحتضر وان لم تمت حتف انفها فلسوف تنتحر غداً وتذهب ،
فاساس هذه الحضارة منهار لا يحتمل صدمة..
تستوى في هذا الشيوعية كما تستوى في هذا الرأسمالية..
فكلاهما يقوم على الشره، والنهامة. وكلاهما معاد لحقيقة الانسان
الذي استخلفه الله فوق هذه الارض.» (١٧)
وقد صدق نصف النبوة، بسقوط الشيوعية. ولن يبعد كثيراً هذا
اليوم تكتمل فيه هذه النبوة...

* * *

نحن اذن امام رجل لا كالرجال، كما يقول العلامة - عباس
العقاد- (١٨): رجل عبقرى.. او رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا
يعدون في الزمن الواحد بأكثر من الأحاد..

أنقول رجل قوى؟ نعم هو رجل قوى لا مرأى، وكل عظيم فهو قوى
بمعنى من معانى القوة.. وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالامر
اليسير لانه نمط لا يتكرر. وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً في

التاريخ كله لا نظير له في تفصيل اخلاقه وصفاته وان ساواه في القدر
انداد وقرناء..

وقد بلغ - سعيد النورسي - شأواً بعيداً في تأكيد هذه العظمة،
وتأكيد هذه القوة..

قوة الايمان في مواجهة الكفر ..

وقوة الحق في مواجهة الباطل ..

وقوة العلم في مواجهة الخرافة ..

وقوة التضحية في مواجهة السيف والموت ..

ان قصة بديع الزمان مع الجنرال الروسي « نيقولا فيج » مثال حي
على هذه العظمة وهذه القوة ..

وموقف بديع الزمان في المحكمة - التي سيق اليها - بدعوى
الاشترك في حركة تطالب بتطبيق الشريعة - مثال آخر على هذه القوة
وهذه العظمة ..

ففي ساحة المحكمة، ومنظر جثث خمسة عشر مشنوقاً تشاهد عبر
النافذة يسأله رئيس المحكمة قائلاً:

- انت تدعو الى تطبيق الشريعة؟ ان من يطالب بها مصيره الشنق
كما ترى في جثث هؤلاء المشنوقين الخمسة عشر (١٩):

هنا يقف « بديع الزمان » قائلاً:

لو ان لي ألف روح لما ترددت ان اجعلها فداء لحقيقة واحدة من
حقائق الاسلام.. اننى اقول لكم وانا واقف امام البرزخ الذى تسمونه

السجن في انتظار القطار الذي يحملني الى الآخرة ..
اننى في غاية الشوق لقدومى الى الآخرة .. وانا مستعد للذهاب
مع هؤلاء الذين علقوا على المشانق ..
لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل ايام الاستبداد والان فان
هذه الحكومة تعادى الحياة .
واذا كانت هذه الحكومة هكذا ..
فليعيش الجنون ..

وليعش الموت .. وللظالمين فلتعش جهنم ...!!!

* * *

وبعد: فاذا صلح العالمُ .. صلح العالم .. كلمة سمعتها من
رجل بسيط مسلم، فالمسلم بفطرته يحكم بميزان هذه القطرة في شؤون
القلب، ويقيم من نفسه حاكماً على ما تقع عليه عيناه في دنيا الخلق ..
ذلك لانه اذا صلح العالم، صلح الحاكم، واذا صلح الحاكم
صلحت امور الرعية، واستقامت الموازين الفاصلة بين الاستبداد
والحرية ..

يقول النبي ﷺ:

(صنفان من امتى اذا صلحا صلح الناس، واذا فسدا فسد الناس،
العلماء والامراء) ..

العالم اولاً لأنه المسئول عن البيان والحاكم ثانياً لأنه يحكم طبقاً لما
يوضحه العالم من امور يقوم عليها نظام الحياة وال عمران .

يقول مقاتل بن سليمان:

دخلت على (حماد بن سلمة) فاذا ليس في البيت الا حصير وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه - اى كتبه - ومطهرة يتوضأ منها، فبينما انا جالس اذ دق الباب فقال: يا حبيبة أخرجى فأنظري من هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان (اى الحاكم)، فاذن له فدخل..

فقال: اما بعد : فصبحك الله بما صبح به اوليائه واهل طاعته، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها..

فقال: يا حبيبة هلم الدواء، ثم قال لى: اقلب الكتاب واكتب : اما بعد : فانت صبحك الله بما صبح به اوليائه واهل طاعته، إنا ادركنا العلماء وهم لا يأتون احدا، فان وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك، وان أتيتنى فلا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح الأ نفسي والسلام..

فبينما انا جالس اذ دق الباب..

فقال: يا حبيبة اخرجى فانظري من هذا؟

قالت: محمد بن سليمان (اى الحاكم) ..

قال: قولى له : يدخل وحده ..

فدخل وجلس بين يديه ..

ثم ابتداء فقال: ما لى اذا نظرت اليك امتلأت رعباً؟!!!

قال حماد: حدثنى ثابت البنانى قال: سمعت أنساً يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« ان العالم اذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شئ.. واذا أراد ان يكثر
الكنوز هاب من كل شئ»!!!..

* * *

ان الامام بديع الزمان سعيد النورسي لن يموت في ضمير هذه
الامة.. وان كلماته ووصاياه لن تذهب سدى ولا هباء ما بقى في
الحياة مسلم غير او مسلمة.

ان موته لم يكن نهاية مجده ولا جهاده.. وان النور المحمدي الذي
سطع منه لن يقدر احد على اطفائه..

والا فما الذي جاء بنا من مصر بلد الازهر.. ان الاسلام لا يعرف
فواصل الجنس ولا اللغة.. وما نكبت هذه الامة بمثل ما نكبت به على
ايدي هؤلاء السفاحين والقتلة الذين اعادوها جاهلية وشعبوية..

لقد سطعت شمس الحقيقة الاسلامية في شخص بديع الزمان سعيد
النورسي..

وهي حقيقة تتجاوز الزمان والمكان والحاضر والمستقبل..
حقيقة احييت الامل في القلوب المظلمة باليأس. وفي الشعوب التي
توهمت ان نداء الايمان قد خفت من فوق مآذن «اسلامبول» التي
عادت - كما كانت - تستقبل ابناء الاسلام من كل لون ومن كل
جنس...!!!

الهوامش

(*) انظر كتابنا « حتى لانخدع ». طبعة دار الشروق - القاهرة

(١) الاسلام في القرن العشرين - ص ٤٣ - عباس العقاد.

(٢) في حديث عن رسول الله ﷺ انه قال:

« يوتك ان تداعى الامم عليكم كما تداعى الاكلة على قصعتها » الحديث رواه ابو

داود والبيهقي في دلائل النبوة. انظر مشكاة المصابيح ج ٢ طبعة المكتب الاسلامي

١٣٨١ هـ .

(٣) عجائب الآثار للجبرتي - طبعة دار الشعب بالقاهرة.

(٤) انظر في هذا الموضوع - المهدي السوداني - للكاتب - طبعة دار المعارف - القاهرة

١٩٨٠ م ..

(٥) نسبة الى (سرهند) بين دهلي عاصمة الملاد الهندية وبنجاب، وقبره يزار ويترك به.

(٦) والطريقة المنسوبة الى الشيخ، وهي الطريقة المجددية، وهي وان كانت ابعد الطرق

عن البدع والخرافات فقد تطرق اليها بعض الغلو من الذين نسوا اليه الكرامات

الخارقة وعزوا اليه اقاويل واعمالاً لا يتك عقلاؤهم في براءته منها.

(٧) نظرة اجمالية الى انتشار الدعوة الاسلامية في الهند. - مسعود الندوي - ص ٢٠

وما بعدها.

(٨) ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين - فضيلة العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى -

ص ٥٦ - وما بعدها ..

- (٩) بديع الزمان سعيد النورسي - ص ١٧٤ وما بعدها.
- (١٠) بديع الزمان سعيد النورسي - ص ١٧٧.
- (١١) انظر: الاحياء ج ١ - كتاب الطهارة.
- (١٢) الامام الغزالي .. د/يوسف القرضاوي - ص ٦٧ - ٦٨.
- (١٣) تاريخ الاستاذ الامام «لرئيس رضا - محمد عبده» للعقاد - زعماء الاصلاح
«احمد امين - ص ٣٢٩ - الطبعة الخامسة..»
- (١٤) بديع الزمان سعيد النورسي - ص ١٥٤ وما بعدها..
- (١٥) ولد العلامة اقبال سنة ١٨٧٧م وتوفي في ابريل ١٩٣٨م، بينما ولد بديع الزمان
سنة ١٨٧٣م وتوفي عام ١٩٦٠م.
- (١٦) بديع الزمان - ص ١٦٧.
- (١٧) روائع اقبال - العلامة ابوالحسن الندوي.
- (١٨) عبقرية عمر - طبعة دار الهلال - ص ٢٧.
- (١٩) بديع الزمان سعيد النورسي - ص ٣٤ - ٣٥.



الدكتور عماد الدين خليل

- استاذ التاريخ الاسلامي ومناهج البحث في جامعة الموصل في العراق .
- ولد عام ١٩٣٩ في الموصل في شمالي العراق .
- درس في الموصل وبغداد والقاهرة حيث حصل على الدكتوراه في التاريخ الاسلامي في عام ١٩٦٨ م من جامعة عين شمس .
- عمل محاضراً في اكثر من جامعة عراقية وعربية واسلامية .
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية في عدد من البلدان .
- أَلَّف اكثر من اربعين كتاباً في مجال التاريخ وفلسفته والمنهج والفكر والادب الاسلامي تنظيراً ونقداً وابداعاً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رؤية جمالية في «الكلمات»

القسم الأول
«الاسلوب والتقنيات»

عبرتُ (الكلمات) من بدئها حتى منتهاها.. ساعات طويلة وأنا أعيش فكر (النورسي) وتدفق عطائه كالشلال.. بمرور الوقت بدأت أحس أنني أتجاوز حالة (القراءة من الخارج) وأني اقترب منه شيئاً فشيئاً لكي ما البث أن اجلس قبالة تماماً، فانصت لكلماته واعيشتها وهي تتشكل على يديه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً.

في البدء كنت أتصور ان المنظور الجمالي (لللكلمات) يتوزع هنا وهناك، في مقاطع وفقرات وفصول، كما هو شأن مفكرين شتى، وأنه -بالتالي- يمكن أن يكون مجزئاً وأنه -بشكل من الاشكال- يمكن فصله عن سياقه وفق المنهج الاكاديمي، لكي يعود المرء فيتعامل مع المادة الجمالية المنتزعة بعناية من فكر الرجل، فيدرسها ويوغل في دلالاتها،

ويعيد تركيبها وفق نسق موضوعي يمنح الدارسين تصوراً أكثر مقاربة لمعطيات (النورسي) الجمالية.

تبيّن لي أن هذا مستحيل، ذلك أن المعطى الجمالي (للكلمات) لا يكاد ينفصل عن دققها الذي يبدأ من اول لحظة فلا يخفت نبضه حتى آخر كلمة فيه. ليس هذا فحسب، بل ان كل موضوعة من موضوعاته المتنوعة الخصبة، لا تكاد تبعد، أو تنفصل عن المسألة الجمالية في الشكل والمضمون، بل انها تتلبّسها وتتعاشق معها، بحيث أن محاولة فصلها عن السياق تغدو في المنظور المنهجي امراً تعسّفاً.

والبديل؟

ان يتحوّل المرء الى صيغة عمل أخرى تحاذر مظنة الاقتطاع...
تتجاوز اسلوب البحث عن (الشاهد) المتفرد، محيلة القارئ الى حشود من الشواهد لكل حالة او مسألة، وترحل في الكتاب، في ضوء سياقات الجمال أو تياراته الأساسية لكي تقول، أو تؤشّر، أو توميء - في الأقل - الى ما اراد (النورسي) أن يقوله عن (الجمال) من أفقه الايماني الرحب الذي يتجاوز المنظور الى الغيب، والأرض الى (السماء)، والدنيا الى الآخرة، والذرة الى الكتلة، والنبض الى القانون، والسنة الى الخارقة، وهندسة العقل الى دفع الوجدان، والجماد الى الحياة، والانسان الى النبات والحيوان والانهار والشلالات والجبال، وكتاب السماوات والأرض الى كلمات الله في قرآنه المبين..
إنه - باختصار لا اختصار بعده - يتعامل مع ابداعية الله سبحانه في الكون.. مع كلمة الله ذي الجلال والجمال، تلك التي تقول للشيء: كن، فيكون.

بدءً من صيغ الخطاب التي تعتمد (الكلمة) وتفجر قدراتها البلاغية، وانتهاءً بأبعد آفاق المعطى الجمالي متمثلاً بالتناسق الكوني: في بنية الكون نفسه وفي كتاب الله المعجز الذي يعكس بتكوينه اللغوي المدهش، حالة جمالية متفرّدة، بحثت وقرئت آلاف المرات، فلم تخلق على كثرة الرد.. وها هو ذا (النورسي) يجيئ، في الموعد المضروب من عصر المادية الطاغية، لكي يضيف ما يهز الوجدان بصدد الاعجاز الجمالي للقرآن، والرسالة وكلمات الله التي ما لها من نفاذ.. وإبداعيته الباهرة في الكون والعالم والوجود والطبيعة والحياة والانسان والاشياء والذرات والجزئيات.

على هذا فان البحث قد يطول فيتجاوز حدوده المناسبة للقاء كهذا، فيغدو (كتاباً)، وقد يتحقق هذا في يوم من الأيام - بمشيئة الله وحده - لكي يشبع في النفس حالة ملحة. أما الآن فان المطلوب صفحات لا تتجاوز العشرين او الثلاثين، يتحتم أن تُضغَط فيها ملاحظات واستنتاجات تمس جلّ المفردات أو الموضوعات (الجمالية) التي تعاملت معها (الكلمات).

إن (النورسي) رحمه الله ينقذ تغطية (استطبيقية) دقيقة شاملة للمسألة الجمالية، بدءاً من اللغة كصيغة للخطاب الابداعي وانتهاءً بالمضامين الجمالية الكبرى للابداع الالهي في الكون، مروراً بتدفق الخلق المدهش في السماء الدنيا، في العالم، في دنيا النبات والحيوان والطبيعية وفي الجمادات والذرات والاشياء.. دون أن يغفل لحظة عن حلقات التميز الجمالي الاسلامي وهويتعامل مع الانسان، والروح، وعالمي الغيب والشهادة.. وهو - في كل الموضوعات التي يعالجها -

يتلقى إشارة البدء ومعالم الطريق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مخصّصاً مساحات واسعة خصبة لما ينطوي عليه كتاب الله وشخصية رسوله المعلم - عليه افضل الصلاة والسلام - من قيم جمالية لم يرق إليها ولن يرقى كائن او كتاب!

ومنذ البدء، يلمس المرء تماماً، حضوراً مؤثراً للأخ الاستاذ (احسان قاسم الصالحى) ليس كمترجم للنورسي فحسب، وانما كأديب حسّاس، يملك تقنيّاته اللغوية، وخبرته المرنة اللتين يعرف بهما كيف يتجاوز موات النقل الحرفي او النصّي كما يفعل الكثيرون من انصاف المترجمين، وكيف يجعل القارئ حاضراً تماماً في المناخ الاكثر مقاربة لمعطيات (النورسي) وبالتالي الاكثر إعانة للدارسين عليّ التماس مع هذه المعطيات، خاصة إذا كانت المسألة تتعلّق بمتابعة البعد الجمالي الذي لن يتأتّى (تذوّقه) إلا من خلال جهد ترجماني مبدع، كذلك الذي بذله (الصالحى) على مدى عشرين سنة.. ولا يزال.

لغة (النورسي) لغة تعبيرية، ذات ايقاع شعري يتجاوز البحور والقوافي الى ما اصطلاح عليه بالموسيقى الداخلية للكلمات، والجمل، والتعابير، وهو بهذا المعنى ينقذ أداءً شعرياً دون أن يلزم نفسه بتقنيات الشعر كافة. قد يتعامل مع البحور أحياناً، لكنه لا يجد نفسه ملزماً بالتعامل مع القوافي.. هذا - بطبيعة الحال - اكثر تلاؤماً مع ما يعرف بالنثر الشعري الذي يتأبى على القوافي وإلا فقد خصائصه النوعية، رغم ان (النورسي) يتواضع في مقدمته (اللوامع) التي تبدو فيها بصمات استاذة (جلال الدين الرومي) واضحة، فيقول: «انه لم يقدرّ النظم والقافية قدرهما، لعدم معرفتي بهما، فالمرء عدو ما جهل»

ويقول: «لم اشأ قط تغيير صورة الحقيقة لتوافق اهواء القافية.. ولأجل هذا فقد البست اسمي الحقائق، اردأ الملابس في هذا الكتاب الخالي من القافية والنظم»^(١) وهو يبرر هذا، فضلاً عن الجهل بمطالب الشعر، بأنه يريد أن يحصر فكره في المعنى وحده دون اللفظ. لكن رؤيته للموضوع تحمل بعداً نقدياً، وهو يقولها بوضوح: «لقد اردت أن ابين بهذا الاسلوب نقدي لاولئك الشعراء الذين ينحتون الجسد ليوافق اللباس»^(٢) وقد لا يكون هذا مقنعاً لأن الشاعر المتمرس؛ استاذة جلال الدين الرومي مثلاً، سعدي، شيرازي، المتنبّي، البحتري، المعري.. وغيرهم كثيرون.. قدروا على اجتياز الامتحان الصعب فجاءت قصائدهم كفاء المعاني المتألقة التي ارادوا أن يرسموها شعراً.

و(النورسي) يدرك هذا جيداً، اذ ما يلبث أن يقول: «لئن كنت قد أخطأت - وأنا اعترف به - فايك ان تخطئ فتتظر اليّ الاسلوب المتهرئ ولا تنعم النظر في تلك الحقائق الرفيعة، ومن ثم تهوّن من شأنها»^(٣) ويقول مؤكداً اعترافه: «لم اتمكن طوال حياتي من نظم بيت واحد او من وزنه»^(٤).

ان «النورسي» يضعنا في (لوامعه) أمام مسألة (الشكل والمضمون) وهي مسألة قيل فيها الكثير منذ عصر الجاحظ وحتى عصر الناقد الفرنسي (رولان بارت) فليس ثمة من مبرر للوقوف عندها، لأننا جميعاً متفقون على أن الخطاب الأدبي لن يكون عملاً ابداعياً مالم ينطو على الاثنين معاً، فلو أننا رجعنا الى ما قاله (النورسي) نفسه فاننا سنجدده، رغم تأكيده على المعنى، يمارس في (اللوامع) جهداً أدبياً «على حين غرة الحت على فكري رغبة قوية في النظم، وقد

كانت روعي ترتاح لما في كتاب (قول نوالا سيسيبان) (٥) من نظم فطري عفوي على نمط مدائح تصف غزوات الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. فاخترت لنفسي طراز نظمه، وكتبت نثراً شبيهاً بالنظم. ولم اتكلف للوزن قطعاً. فليقرأه من شاء نثراً قراءة سهلة دون تذكر بالنظم واهتمام به، بل عليه أن يعده نثراً ليفهم المعنى، اذ هناك ارتباط في المعنى بين القطع، وعليه ألا يتوقف في القافية (٦) فكما تكون الطاقية والطربوش بلا شراية كذلك يكون الوزن ايضاً بلا قافية، والنظم بلا قاعدة بل اعتقد أنه لو كان اللفظ والنظم جذابين صنعة يشغلان فكر الانسان بهما ويشدانه اليهما، فالاولى اذن ان يكون اللفظ بسيطاً من غير تزويق لثلا يصرف النظر اليه» (٧) وهذا يكفي.

لكن اذا تجاوزنا (اللوامع) كعمل يراد له أن ينتمي، بشكل أو آخر، الى (النوع الشعري)، وفتحنا مدى الرؤية على (الكلمات) كلها فاننا سنجد انفسنا قبالة «اديب» من طراز عال يعرف كيف يوظف آليات اللغة وقدرات البلاغة من استعارة ومجاز وتكنية: وتشبيه وتخيل.. الى آخره للتعبير عن معانيه. والأهم من هذا أن لغة النورسي لا تكاد تتخلى إلا في حالات ضرورية يقتضيها السياق، عن ايقاعها الشعري الذي يحمل دائماً منظومة من الافكار العميقة الخصبية، ويستفز قارئه لأن ينقب معه عن المزيد.. إنه - بإختصار - أديب متمرس يضع نفسه ولغته وفكره في حوار موصول إزاء الكون والعالم والانسان، لكي يصل دائماً الى الجواب نفسه: «الاسلام»، بكل ما تحمله الكلمة وتتسع له من انفساح يبدأ بالجزئيات والذرات التي لا تُرى، وينتهي بالكتلة الكونية التي تغيب اطرافها النائية في طوايا الأبعاد الزمانية والمكانية، مروراً بالوجود والحياة والكائنات والطبيعة والانسان.

تواضعه، أو ان شئنا تبرؤه في (اللوامع) من صنعة الشعر، لا يعفيه من تحمّل مسؤوليته كأديب. فاذا تذكرنا مقولة (سارتر) عن الشعر، وتأبيّه على الالتزام ربما بسبب من جموحه واندفاعه التعبيري الذي يخرج عن إرادة الشاعر نفسه.. اذا تذكرنا ان النثر وحده هو الذي يلتزم - في المنظور السارترى - فيعرف كيف يعبر عن الافكار الكبيرة، فاننا نجدها كرهة اخرى قبالة النورسي الأديب الذي لا يقدم لقارئه معان كبيرة فحسب، ولكنه يقدمها بأعذب اسلوب واكثر الصيغ شفافيةً وجمالاً.

والتورسي، فضلاً عن موسيقى الكلمات التي تصوغ نثراً شعرياً او شعراً منشوراً، يوظف العديد من التقنيات البلاغية لتحسين خطابه الأدبي وجعله اكثر جمالية وتأثيراً: المثل، الحكاية، الرمز، الحوار، الصورة أو الجملة التعبيرية المرسومة بعناية... الضمائر... صيغ النداء... المجازات... الاستعارات... والمفردات.

لنبدأ بهذه الاخيرة.. إن قارئ (الكلمات) يعثر بين لحظة واخرى على مفردات مشتقة من قاموس الجمال: الشعاع، التلاؤلؤ، الزينة، الصنعة، النور، الغصون، الرشحات، اللوامع، القطرات، الجوهرة، الالماس، الشعلة، الزاهي، القشيب، المزركش، القبس، الجلوة، اللآلئ، الزهيرة، اللطيفة، الوضاعة، الشفافية، النورانية، شمة النسيم، البحر، التجميل، الأزاهير، الحُسن، نوى الحقائق، الروعة، الابداع، الانسجام، الجمال، الاتقان، الكمال، الضياء، الالوان، الاصوات...

فاذا تذكرنا ان جلّ هذه المفردات أريد لها أن تكون عناوين أو مرتكزات للعديد من الموضوعات التي عالجها النورسي، عرفنا كيف أنه

يتعامل مع الافكار الكبيرة التي كانت تؤرقه، ليس بصيغ التعبير الجافي الذي يخلو - باسم المنطق والنزوع العلمي - من أية لمسة جمالية، وإنما باكثر الصيغ شفافية ورواء.

لنتابع - ايضاً - صيغ النداء المؤثرة التي اعتاد أن يبدأ بها، أو يختم، الكثير من تأملاته: « فيا ايها الأخ » « فيا من ينصت معي » « يا صاحبي ! » « يا أخي ! » « فيا صديقي ! » « اسمعت يا صاحبي ما يقول ؟ » « فيا نفسي الحائرة ! » « انظر ايها الغافل ! » « تعال ! » « فيا نفسي الغافلة ! » « فاذا فهمت يا أخي » « يا صاحبي في الخيال ! » « يا نفسي ايتها السادرة في الغفلة » « يا نفسي الجاهلة ! » « يا نفسي الموسوسة ! » « يا نفسي الكسول ! » « يا نفسي المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء » « يا نفسي الغوية ! » « يا نفسي الشقية ! » « يا نفسي الجزعة ! » « يا نفسي الطائشة ! » « يا نفسي الشرهة ! » « يا نفسي المغرمة بالدنيا » « ايها الغافل الغارق في عبادة الأسباب ! » « يا ايها الغافل المتردي في مستنقع الطبيعة ! » « فيا ايها الانسان ! ».

انه في نداءاته هذه يجعل الخطاب الأدبي دعوة للمشاركة.. إثارة.. إعراباً عن الرغبة في الأ يبقى منفرداً.. أن يأتي اليه الآخرون ليريهم ما يري، ويقنعهم بما يكاد يلمسه بعقله وحسّه وبصيرته النافذة في الظواهر والموجودات والاشياء، بحثاً عن حكمة الله البالغة في كل صغيرة وكبيرة. انه يستخدم - حيناً - ارق صيغ النداء واكثرها شفافية لكي يجعل (الآخر) يتحرك، مقرباً اكثر فاكثر، وكأنه يعرف تماماً، انه بمجرد الاستجابة لندائه، فانه سيضعهم - بالتأكيد - على حافة الملكوت، وحينذاك لا يمكن إلا لمن ضرب على عقله وقلبه حجاب من

الغفلة أو الجهل أو الكسل أو الاعجاب أو وسوسة الشيطان، أن يرفض الذهاب مع النورسي في رحلاته العذبة المؤثرة عبر مسالك الملكوت.

من ثم فإن نداءه قد يتحول إلى النقيض... أيضاً لكي يستفز ويحرك، بل إنه ينادي نفسه أحياناً بما يضعها في مواقع الجهل والغفلة - وحاشاه - إنما هي التذكرة، والتواضع أمام الحقائق الكبرى، ولعلها تكون محاولة لكسر العوائق المتبقية التي قد تحجب الرؤية النقية للحقائق. وهو يعرف جيداً ما يريد أن يقوله، فاذا كان هو نفسه يستجيش نفسه بنداءات كهذه فاحري بغيره أن يلتفت قليلاً إلى ما في نفسه هو، فإن هناك الف ستار وستار من الغفلة والجهل والاعجاب بالذات تتحتّم مجاهدتها والتغلب عليها وصولاً إلى موقع الاستشراق الذي تلقى فيه النورسي، وهو يقف هناك لا يحجبه شيء: السر والشعاع.

هناك صورته التعبيرية المرسومة بعناية: «تذكرة مرور في رحلة الخلود»^(٨)، «وهل يقال للشمس وهي في كبد السماء: اين هي؟»^(٩) «تأمل في هذه الزهرة - وهي كلمة من كلمات القدرة الالهية - انها تنظر الينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء»^(١٠) «الزهرة ايضاً ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهدها صورتها الظاهرة، وفي بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية تحفظ جمالها وصورتها وزينتها»^(١١) «اذا تصوّرت نفسك قبل الف سنة مثلاً وقابلت بين جناحي الزمان الماضي والمستقبل ترى امثلة الحشر والقيامة ونماذجها بعدد العصور والأيام»^(١٢) «إن كل من يمتطي التاريخ ويذهب خيالاً

الى جهة الماضي سيرى أنه قد ماتت بعدد السنين منازل ومعارض وميادين وعوالم شبيهة بمنزل الدنيا وميدان الابتلاء ومعرض الأشياء في وقتنا الحاضر» (١٣) «فهؤلاء جميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى - أي الحشر - شعاع عظيم من اسم (الحق) الذي هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك - باذن منك - ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة» (١٤).

كثيرة هي التعابير الأنيقة التي يصوغها النورسي في كلماته، وهي منبثة في كل مكان، مذكرة ايانا بأناشيد سليمان (عليه السلام) حيث يلتقي بتناسق عجيب الحكمة والجمال.

إن النورسي هنا يقدم لقرائه افكاراً عن الرحيل والخلود... عن الحقائق والظواهر... عن الفناء والانبعاث.. ولكن بأي اسلوب؟ إنه هاهنا يوظف الشمس، والزهرة، والبذرة، والصورة، والمنازل، والمعارض والميادين.. يوظف - ايضاً - حركة الزمن وحكم التاريخ ويستخدم مفردات الزينة والجمال من أجل ان يلبس افكاره الرداء الجميل فيجعلها اكثر اغراءً وأشد تأثيراً.

والحوار - كأداة بلاغية - يُعتمد هو الآخر في اكثر من مكان في رسائله وهو ينتشر على مساحات واسعة بحيث يصعب - التزاماً بالإيجاز - اقتباس شاهد منه، ويكفي ان نحيل القارئ الى بعض النماذج (١٥) والنورسي هاهنا، بدلاً من أن يجادل من طرف واحد ويحكي بضمير المتحدث العالم بكل شيء، كما يقول نقاد الرواية المحدثون، يجعل الشخص نفسه تتحاور، وينسحب هو - احياناً - لكي يمنح الجدل حيوية اكثر ويجعله يتجاوز صيغ التأمل العقلي

الخالص، الى تقابل مؤثرين الافكار وهي تتشكل في واقع الحياة من خلال الشخوص التي تتحاور... ليس هذا فحسب، بل انه يجعل جدلهم يبعد، اكثر فاكثر، عن جفافه العقلي فيستعير من مفردات الحياة نفسها الكثير من الصور، والكلمات والتعابير ويمنحها عفوية وصدقاً فنياً.

هنالك (المثل) الذي يوظفه النورسي في رسائله كافة بكثافة ملحوظة. (١٦)

ها هنا يكفي ان نتابع شواهد محدّدة ويمكن للقارئ أن يرى بنفسه حشوداً من الامثلة المنبثة في كل مكان، عبر الصفحات التي احلنا اليها قبل قليل.

يمثل للانسان الذي يترك صلاته من اجل هموم العيش « بذلك الجندي الذي يترك تدريبه وخندقه ويتسول متسكعاً في الاسواق. بينما الذي يقيم الصلاة، دون أن ينسى نصيبه من الرزق، يبحث عنه في مطبخ رحمة الرزاق الكريم لئلا يكون عالة على الآخرين. فجميل عمله، بل هو رجولة وشهامة وهو ضرب من العبادة ايضاً». (١٧)

ويمثل للانسان الذي يحصر نظره كله في الدنيا فيحيل اللذة الحلوة الى الممرير فيقول: « هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان: احدهما فقد رحل تسعة وتسعون بالمائة من احبته الى استانبول وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو ايضاً في طريقه الى الالتحاق بهم، لذا فان هذا الرجل مشتاق الى استانبول اشد الاشتياق، بل يفكر بها ويرغب في أن يلتقي

الاحباب دائماً. فلو قيل له في أي وقت من الاوقات: هيا اذهب الى هناك، فانه سيذهب فرحاً باسماً. أما الرجل الثاني فقد رحل من احبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن ان بعضهم فني، ومنهم من انزوى في اماكن لا ترى. فهلكوا وتفرقوا حسب ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من اولئك جميعاً ويريد أن يغطي به على الم الفراق الشديد.

« فيا نفسي! ان احببتك كلهم، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم (حبيب الله) (ﷺ) هم الآن في الطرف الآخر من القبر. فلم يبق هنا الا واحد او اثنان وهم ايضاً متأهبون للرحيل. فلا تديرن رأسك جفلة الموت، خائفة من القبر، بل حدّقي في القبر وانظري الى حفرتة بشهامة واستمعي الى ما يطلب. وابتسمي بوجه الموت برجولة وانظري ماذا يريد! واياك ان تغفلي فتكوني اشبه بالرجل الثاني». (١٨)

ويعمل لارادة الله الواحد المبدع بالصورة التالية: « تعال يا صديقي الى نزهة نتجول في (العالم) الواسع المقروش أمامنا. ها هوذا جبل اشم، تعال لنصعد عليه حتى نتمكن من مشاهدة جميع الاطراف بسهولة، ولنحمل معنا نظارات مكبرة تقرب لنا ما هو بعيد عن أنظارنا. فهذه المملكة فيها من الأمور العجيبة والحوادث الغريبة ما لا يخطر على بال أحد. انظر الى تلك الجبال والسهول المنبسطة والمدن العامرة، انه امر عجيب حقاً اذ يتبدل جميعها دفعة واحدة، بل ان ملايين الملايين من الأفعال المتشابكة تتبدل تبديلاً بكل نظام وتناسق، فكأن ملايين الاطوال من منسوجات ملونة رائعة تنسج أمامنا في آن واحد. حقاً ان هذه التحولات عجيبة جداً. فاين تلك الأزاهير التي ابتسمت لنا،

والتي أنسنا بها؟ لقد غابت عنا، وحلت محلها انواع مخالفة لها صورةً مماثلة ماهيةً. وكان هذه السهول المتبسطة وهذه الجبال المنصوبة صحائف كتاب يكتب في كل منها كتب مختلفة في غاية الاتقان دون سهوٍ او خطأ. ثم تمسح تلك الكتب ويكتب غيرها. فهل ترى يا صديقي ان تبدل هذه الاحوال وتحول هذه الاوضاع الذي يتم بكل نظام وميزان يحدث من تلقاء نفسه؟ اليس ذلك محال من أشد المحالات؟...» (١٩)

ان النورسي في مناقشاته التي تستهدف تأكيد الحقائق اليمانية في هذا العالم، يجد نفسه مضطراً لاعتماد صيغ الاستدلال العقلي الصرف ولكنه، من اجل ان يجعل استدلاله اكثر حيوية، واقناعاً، يتجاوز التجريد بضرب الامثال المستمدة من واقع الحياة والوجود فيكسب هياكله الذهنية لحماً ودماً ويمنحها بعداً تجسدياً، تعينه عليه قوة خياله التي تنضاف الى قدرته العقلية، وخزينه الفكري، فتجعل من امثله نماذج خصبة ومؤثرة لإستلهام الدعاة، وهو انما يتأسى في ذلك بكتاب الله حيث يجعل اثنتين من آياته البيّنات مدخلاً لكلمته الثانية والعشرين: ﴿ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ (٢٠) ﴿وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (٢١).

والحكاية، او القصة القصيرة - احياناً - اداة اخرى من ادوات النورسي، يسخرها في اكثر من مكان للتحقق بتواصل: بينه وبين قرائه اكثر وضوحاً وأشدّ تأثيراً. انها - والمثل - في نهاية الأمر وسيلتا ايضاح بلاغيتين فلماذا لا يوظفهما الرجل وهو يلاحق بكشّافه اليماني المضيئ كل بقع الظلمة ومنحنياتها في هذا العالم.

منذ الصفحة الأولى، من الكلمة الأولى، وبعد ان يبدأ (بسم الله) يسرد علينا النورسي هذه الحكاية التمثيلية القصيرة، كما يؤثر أن يسميها هو: « ان البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسبح فيها لابد له أن ينتمي الى رئيس قبيلة، ويدخل تحت حمايته، كي ينجو من شرّ الاشقياء، وينجز اشغاله ويتدارك حاجاته، وإلا فسيفقى وحده حائراً مضطرباً أمام كثرة من الاعداء ولاحد لها من الحاجات.

« وهكذا، فقد توافق ان قام اثنان يمثل هذه السياحة، كان احدهما متواضعاً والآخر مغروراً، فالتواضع انتسب الى رئيس، بينما المغرور رفض الانتساب. فتجولاً في هذه الصحراء. فما كان المنتسب يحل في خيمة الا ويقابل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم وان لقيه قاطع طريق يقول له: انني اتجول باسم ذلك الرئيس. فيتخلى عنه الشقي. اما المغرور فقد لاقى من المصائب والويلات، مالا يكاد يوصف، اذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووجل مستمر، وفي تسول مستديم، فأذل نفسه وأهانها.

« فيا نفسي المغرورة اعلمي! انك انت ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعة هي تلك الصحراء. وان فقرك وعجزك لا حدّ لهما، كما أن اعدائك وحاجاتك لا نهاية لهما. فما دام الأمر هكذا فتقلدي اسم المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكمها الأبدي، لتنجي من ذل التسول امام الكائنات، ومهانة الخوف امام الحادّثات». (٢٢)

وانتهاءً بالكلمة الثانية والعشرين حيث يلتقي القارئ بحكاية اكثر طولاً تنتشر على مدى اربع عشرة صفحة. (٢٣)

وبين الحكايتين يلتقي القارئ، عبر الرسائل جميعاً بالعديد من الحكايات (٢٤).

والتورسي، عبر مثله وحكاياته، وحتى محاوراته العقلية الصرفة، يستخدم الرمز لكي يكثف به معان ودلالات شتى، خاصة وأنه كثيراً ما يتجاوز عتبات العالم المنظور إلى معطيات الغيب وأغوار الروح، حيث يصير الرمز، الذي لا تكاد تفصح عنه الكلمات اليومية المكرورة، مفتاحاً للدخول.

بعد هذا كله، يبقى الايقاع، أو النبض الشعري للغة التورسي هو أكثر ميزاته الجمالية تألقاً وعطاءً في (الكلمات) التي ما تلبث أن تغدو، بين الحين والحين قصيدة عذبة، أو نشيداً ساحراً، أو خطاباً وجدانياً مترعاً بالحزن والشجن والرغبة المعبدة في تخليص الانسان من اوهامه وضلالاته وآلامه وضياعه.

هذا الخطاب الجمالي الذي طالما بدأ بنقطة ارتكاز محددة، لكي ما يلبث أن يفرد جناحيه ويحلّق في الملكوت، مجتازاً كل العقابيل والموانع والمتاريس، مصعداً في السماوات، موعلاً في اغوار الروح، متنقلاً في عوالم الغيب، عائداً، - بين لحظة واخرى - الى عالم الشهادة حيث ينتظره الف من الحيارى الباحثين عن الصراط... يرجع وهو يحمل اليهم الف دليل ودليل لكي يقودهم الى ما يتوقون اليه. وهو - في كل الاحوال - في ادوار رحلته جميعاً، ما ينسى لحظة ان يستضيئ بشعاع واحد هو الشعاع الوحيد القادر على اضاءة الطريق للمدجلين في الظلمات بحثاً عن الحقيقة.. انه كتاب الله وسنة رسوله عليه افضل الصلاة والسلام.

إن مساحات واسعة من نسيج (الكلمات)، بل المساحات الأوسع،
لهي - بمعنى من المعاني - عروض بلاغية مترعة بالجمال والجلال، لا
لشيء إلا لأنها تتحدث عن إبداعية الله في الكون وتلقى الإشارة من
كلمات كتابه المعجز وسحره الحلال، فتكسب - هي الأخرى - قيمتها
الجمالية لأنها - إذا استعرنا مصطلحات البلاغيين - تجيء مطابقة لمقتضى
الحال.

ماذا يأخذ المرء وماذا يدع؟! الشواهد كثيرة، بل انها كما قلنا في
بدء البحث متعاشقة في الكلمات الثلاثة والثلاثين، يصعب فصلها،
ولذا - وللمرة الخامسة أو السادسة - سنكتفي بحالة القارئ الى نماذج
منها لكي يتعامل بنفسه مع ما يمكن تسميته بنمط الشعر العالي،
المنثور، الذي يحمل افكاراً كبيرة دون أن يتخلّى عن اللغة الجميلة،
العذبة التي تنته بهاءً، الأمر الذي يعود بنا ثانية الى (الايضاح)
الضروري الذي قدم به النورسي منظومته التي سماها (اللوامع).

تنتهي (الكلمة الاولى) بهذا الدعاء العذب: «فيا نفسي!! اعطي
باسم الله، وخذي باسم الله، وابدأي باسم الله، واعملي باسم
الله». (٢٥)

وتختتم (الكلمة الثانية والثلاثون) بهذه المناجاة التي يستعيرها
النورسي من العابد المعروف (اويس القرني): «الهي انت ربي وانا
العبد، وانت الخالق وأنا المخلوق، وانت الرزاق وأنا المرزوق، وانت
المالك وأنا المملوك، وانت العزيز وأنا الدليل، وانت الغني وأنا الفقير،
وانت الحي وأنا الميت، وانت الباقي وأنا الفاني، وانت الكريم وأنا
اللئيم، وانت المحسن وأنا المسيء، وانت الغفور وأنا المذنب، وانت

العظيم وأنا الحقيير، وأنت القوي وأنا الضعيف، وأنت المعطي وأنا السائل، وأنت الأمين وأن الخائف، وأنت الجواد وأنا المسكين، وأنت المجيب وأنا الداعي وانت الشافي وأنا المريض...» (٢٦)

وبين الدعاء والمناجاة تتدفق جداول الحب واليقين، كما تدفقت قريباً من المكان نفسه (مثنويات) جلال الدين الرومي، هذا يكتبها شعراً، والنورسي يرسمها نثراً.. لكن النبض الشعري ما أخطأ الرجلين ابداً..

في آخر الكلمة الخامسة يخاطب النورسي نفسه قائلاً: «فيا نفسي! إن كنت تجعلين الحياة الدنيا غاية المقصد وأفرغت في سبيلها جهدك فسوف تكونين في حكم اصغر عصفور. أما ان كنت تجعلين الحياة الأخرى غاية المنى وتتخذين هذه الحياة الدنيا وسيلة لها ومزرعة، وسعيت لها سعيها، فسوف تكونين في حكم سيد الأحياء والعبد العزيز لدى خالقك الكريم، وستصبحين الضيف المكرم الفاضل في هذه الدنيا. فدونك طريقان اثنان فاختراري أيهما تشائين». (٢٧)

وفي الكلمة السابعة يقول بكلمات تقطر حزناً، ما تلبث بقوة الإيمان ان تنقل الانسان المؤمن الى عالم الفرح والبهجة والجمال: «فيا نفسي الباكية علي ما ضحككت أيام شبابها. اعلمي! أن ذلك الجندي المسكين المتورط هو أنت، وهو الانسان، وأن ذلك الأسد هو الأجل، وأن اعواد المشنقة تلك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس. الا ترين كيف يفارقنا كل حبيب اثر حبيب ويودعنا ليل نهار؟ اما الجرحان العميقان فاحدهما العجز البشري المزعج الذي لاحد له. والآخر هو الفقر الانساني المؤلم الذي لا نهاية له. اما ذلك النفي

والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الانسان التي تنطلق من عالم الارواح مارّة من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط . وأما الطلسمان فهما الايمان بالله وباليوم الآخر. نعم ان الموت بهذا الطلسم القدسي . . يتخذ صورة براق يخرج الانسان المؤمن من سجن الدنيا الى روضة الجنان . . ومن هنا كان الكاملون من الناس يحسبون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته. ثم ان سير الزمان ومروره على كل شيء، ونقوذ الزوال والفراق والموت فيه يتخذ بهذا الطلسم الايماني صورة وضأة تحفز الانسان الى رؤية الجدة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في الوان مختلفة متنوعة وانواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين . . نعم ان من يعتمد بهويّة عجزه على سلطان الكون الذي بيده امر (كن فيكون) كيف يجزع ويضطرب . . . ؟» (٢٨)

وفي الكلمة العاشرة نستمع الى هذا النداء: « يا من اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، يا سلطاننا، ارنا منابع وأصول ما أريته لنا من نماذج وظلال . خذ بنا الى مقرّ سلطنتك ولا تهلكنا بالضياح في هذه القلاة . اقبلنا وارفعنا الى ديوان حضورك . ارحمنا . اطعمنا هناك لذائد ما أذقتنا اياه هنا، ولا تعذبنا بألم التنائي والطرده عنك . فها هم اولاء رعيّتك المشتاقون الشاكرون المطيعون لك، لا تتركهم تائهيّن ضائعين ولا تفنهم بموت لا رجعة بعده» . (٢٩)

ونقرأ هذه الكلمات: « انظر كيف انه يطالب الاستعانة مستغيثاً بيكاء، متضرّعاً، راجياً من الأعماق، متوسلاً . . حتى كأنه يُسمع

الموجودات جميعاً، بل السماوات، بل العرش، فيهزّهم وجرّاً
وشوقاً...» (٣٠)

وفي الكلمة الثالثة عشرة يخاطب النورسي المخدوعين بالدنيا وكأنه
يقف في مكان عالٍ يعينه على الاستشراق، فيرى ما لا يرون: «فيا من
فتتّم بزهره الحياة الدنيا ومتاعها، ويا من يبذلون قصارى جهدهم
لضمان الحياة والمستقبل بالقلق عليهما! ايها البائسون! ان كنتم ترومون
التمتع بلذة الدنيا والتنعم بسعادتها وراحتها فاللذائد المشروعة تغنيكم
عن كل شيء. ولقد أدركتم ان كل لذة خارج نطاق الشرع فيها الف
ألم وألم، إذ لو أمكن عرض ما سيقع من احداث مقبلة بعد خمسين
سنة.. على شاشة الآن مثلما تعرض الاحداث الماضية عليها لبيكن
ارباب الغفلة بكاءً مرّاً اليماً على ما يضحكون له الآن!». (٣١)

ويخاطب اخوته المسجونين: «اخوتي الاعزاء... لقد بتّ على
قناعة تامة من أن العناية الإلهية هي التي القت بنا الى هاهنا وذلك
لأجلكم انتم.. ان مجيئنا الى هنا انما هو لبث السلوان والعزاء الذي
تحمله رسائل النور اليكم، وتخفيف مضايقات السجن عنكم بحقائق
الايمان، وصونه، من كثير من بلايا الدنيا ولأوائها، وانتشال حياتكم
المليئة بالاحزان والهموم من العبثية وعدم الجدوى، وانقاذ آخرتكم من
أن تكون كدنياكم حزينه باكية...» (٣٢)

وفي الكلمة السابعة عشرة يورد النورسي قطعة تذكّرنا (باللوامع)
يقول عنها انها جاءت بما يشبه الشعر، الا انها ليست شعراً، ولم يقصد
نظمها، بل ان كمال انتظام الحقائق يجعلها تتخذ شكلاً شبيهاً بالنظم:

« ... فيا رب! لما كانت وسيلة النجاة هي هذه، فأنني اتخلى عن ذلك الجزء الاختياري واتبرأ من انانيتي في سبيلك.

« لتأخذ عنايتك بيدي، رحمة بعجزتي وضعفي، ولتكون رحمتك مستندي رأفة بفقري واحتياجي... ولتفتح لي بابها.

« نعم كل من وجد بحر الرحمة الذي لا ساحل له، لا يعتمد على جزئه الاختياري، وهو كقطرة سراب، ولا يفوض اليه امره من دون تلك الرحمة « يا أسفى، لقد خدعنا فظننا هذه الحياة الدنيا مستقرة دائمة وأضعنا بهذا الظن كل شيء.

« نعم، ان هذه الحياة غفوة قد مضت كرؤيا عابرة!

وهذا العمر الذي لا قرار له يذهب ذهاب الرميم

« ان الانسان المغرور، المعتد بنفسه، ويحسبها ابدياً، محكوم عليه بالزوال، انه يذهب سريعاً.

اما الدنيا التي هي مأواه فستهوي في ظلمات العدم، فتذهب الآمال ادراج الرياح وتبقى الآلام محفورة في الارواح..

« محبوب يغرق في أفق المغيب! ليس بمحبوب جميل، فالمحكوم عليه بالزوال لن يكون جميلاً حقاً ولا يحبه القلب، اذ القلب الذي خلق اصلاً ليعشق خالداً، ويعكس انوار الصمد لا يودّ الزوال..

« مطلوب محكوم عليه بالافول، ليس اهلاً ان يرتبط به القلب ولا يشد معه الفكر لأنه عاجز عن ان يكون موثلاً للآمال، فالنفس لا تذهب عليه حسرات، اترك يعشقه القلب او ينشده ويعبده؟

« مقصود يحى في الفناء ويزول! لا اريده! أنا لا اريد فانياً.. فماذا يغني القانون عني؟!». (٣٣)

وفي المقاطع الأخيرة من غنائته العذبة هذه يكتب رسالة يستنتق
بها النجوم، فتنتصت لنشيدها الكوني الذي يمنح المرء القناعة بأن
الأدب الايماني هو في القمة بين الآداب.. أو هذا ما يجب ان يكون:
« نحن الوف العيون الباصرة تطل من السماء الى الارض وترنو الى الجنة
نحن الوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة علقتنا يد حكمة الجميل ذي
الجلال على شطر السماء وعلى اغصان درب التبانة..

« هكذا نبين مائة الف برهان وبرهان، بمائة الف لسان ولسان
ونسمعا الى من هو انسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة ولا يسمع اقوالنا
البينة، فنحن آيات ناطقة بالحق.

« سكّتنا واحدة، طرّتنا واحدة، مسبّحات نحن عابدات لرّبنا،
مسخرات تحت امره.

نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبه، منسوبات الى حلقة ذكر
درب التبانة». (٣٤)

وأخيراً.. في الكلمة الرابعة والعشرين نقرأ هذه الفقرة: « يا نفسي
الحبة لنفسها، ويا رفيقي العاشق للدنيا! اعلمي ان المحبة سبب وجود
هذه الكائنات والرابطة لأجزائها، وانها نور الاكوان وحياتها. ولما كان
الانسان اجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون فقد أدرجت في قلبه -
الذي هو نواة تلك الثمرة - محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات
كلّها» (٣٥)

ففي هذه الفقرة - عليٰ ايجازها - نلتقي بمفردات المحبة التي ترد
ثلاث مرّات، والعشق، والنور، والكائنات والاكوان والحياة والقلب
والثمرة.

انها - فضلاً عن خلفياتها الفكرية التي تعبّر عن التوجّهات الكونية
الشاملة لمعطيات النورسي، تومض برؤيته الموضوعية للجمالية والتي
تكاد تغطّي «الكلمات» من بدئها حتى منتهاها، وهي رؤية تنفسح
على جماليات الكون والوجود وترى الإنسان احد مراكز الثقل فيه، او
قطب الرحي. هذا القلب الذي يطوي جناحيه على الموجودات جميعاً
وينبض بالمحبة التي يقوم بها الوجود، فتملك الاستحواذ - بارادة الله -
على الكائنات كلها!

وهذا ينقلنا الى المقطع التالي من البحث والذي سيتابع - بالايجاز
المطلوب - «الموضوع الجمالي» في «الكلمات» على مستوى الكون
والطبيعة والخلائق والانسان.

الهوامش

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور (١) الكلمات ، ترجمة احسان قاسم الصالحي، دار (سوزلر) للنشر، استانبول - ١٩٩٢م ، ص ٨٣٥

(٢) نفسه ص ٨٣٥

(٣) نفسه ص ٨٣٦

(٤) نفسه ص ٨٣٦

(٥) قصيدة طويلة تنوف على اربعمائة بيت في وصف غزوات الصحابة الكرام، باللغة الكردية الكرمانجية الشمالية نظمها الملا خالد اغا الزبياري المعروف بزهده وتقواه:

المترجم، هامش ١ ص ٨٣٦ من (الكلمات)

(٦) قام المترجم بترجمة هذا الديوان نثراً مكثفاً بالمعنى دون القافية أو اللفظ.

(٧) الكلمات ص ٨٣٦

(٨) نفسه ص ٢٦

(٩) نفسه ص ٥٩

(١٠) نفسه ص ٨٠

(١١) نفسه ص ٨٠

(١٢) نفسه ص ٨٧

(١٣) نفسه ص ٩٠

(١٤) نفسه ص ١١٠

(١٥) انظر (الكلمات) ص ٥٩ ، ٣١٠-٣١٢ ، ٣٦٧-٣٦٩ ، ٧٠٨-٧١٧ .

(١٦) انظر (الكلمات) ص ٢٠ ، ٧٧-٨٠ ، ١٣٧ ، ١٦٩-١٧٠ ، ١٧٥-١٧٨ ،

١٩٠-١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦-٣٢٠ ، ٣٢١ ،

٣٢٨-٣٢٩ ، ٣٥٠-٣٥١ ، ٣٦٣-٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧-٣٦٩ ، ٣٨٨ ،

٣٩٦-٣٩٧ ، ٣٩٨-٣٩٩ ، ٤١٥ ، ٤١٧

القسم الثاني الموضوع الجمالي الطبيعة والعالم والكون

على مستوى (الموضوع الجمالي) الذي يتعامل النورسي معه، فإن القارئ يلحظ منذ الوهلة الأولى، كيف ان الرجل يعقد علاقة حميمة مع الكائنات.. ألفة مترعة بالود والمحبة والتفاهم مع كل شئ جميل في الوجود.. يقف حيناً عند جمالياته الباهرة لذاتها، ويمضي حيناً آخر لكي يدلل بها على فكرة ما، على قناعة، او موضوعة، وهو يجادل (الآخر) او ينشئ افكاره وتصويراته ابتداءً. وفي كل الاحوال يجد النورسي في الموضوع الجميل قرينةً من اشد القرائن اهمية وثقلاً في تأكيد الابداع الالهي في الكون والعالم والحياة، وفي تفرد وقدرته التي لا يعجزها شئ في الارض ولا في السماء. ان الموضوع الجميل هو واحد من اكثر الطرق تكشفاً ووضوحاً في الذهاب الى الله الواحد جلّ في علاه.

علاقة حميمة وألفة ميتافيزيقية تبدأ بالذرات التي لا ترى، وتنتهي بالسدم الكبرى الموغلة في اعماق الكون.. تحكي عن دنيا الاشياء والنبات والحيوان، والطبيعة، صعوداً باتجاه الانسان سيد المخلوقات واكثرها احكاماً في الصنعة.. ثم هو يمضي، مجتازاً المنظور والملموس عابراً العوائق والمتاريس، الى ساحة الغيب التي لا ترى ولكنها تحس

وتُشم وتُذاق وتحقق بها الروح التي اوتيت حظاً من الحساسية يتيح لها التواصل مع ما وراء حدود العالم القريب .

ها هنا ايضاً يمارس النورسى سياحته الاثيرة في عوالم الجمال .. وهي هنا في ساحات الغيب اشد روعة واكثر اكتمالاً .. انه يتحدث ويحاور الروح البشرى .. البصيرة القديرة على التجاوز والاكتناه .. الملائكة السابحة في الملكوت .. الموت والبعث والنشور .. القيامة والحساب .. العقاب والثواب .. يصعد اكثر حتى يدخل الجنة فيحكي عما تنطوى عليه من معطيات يبلغ فيها التناسب الجمالي المثل الاعلى ، ويعكس الصيغة الاكثر اكتمالاً للمفردات الجمالية المنقوصة التي قدر للانسان ألا يعرف عنها في الحياة الدنيا إلا جذاذات وتفاريق وألاً يذوق من طعومها الا ما ينبىء بها ولكنه لا يكاد يعطيها!

لا ينسى النورسى .. وكيف ؟ ان يتحدث عن الرسول المعلم ﷺ ، النموذج الكامل للانسان كموضوع جمالي ، وعن خبراته الغيبية الملتحمة الاسباب بجماليات الكون والوجود .. عن كتاب الله ، حيث يخصص رسائل بكاملها متحدثاً عن اعجازه الالهي الباهر في الشكل والمضمون .

ثم هو يصعد في كلماته محاولاً ان يأخذ بيد قرائه وتلامذته لكي يقفهم في نهاية الامر قبالة الجلال والجمال الإلهيين ، وهي قمة الاحسان كما يحدثنا رسول الله ﷺ ان نعبد الله كأننا نراه .. ها هنا حيث يمنحنا النورسى ، الكثير المترع بالخصب والوعد والعطاء .. متمركزاً ، كأى مسلم جاد في هذا العالم ، عند التوحيد الذي هو اساس الأسس في معمار هذا الدين ، وكل دين حق أريد له ان يقود الانسان من جاهلية الصنميات والاوثنان صوب وحدانية الله الذي لا اله الا هو .

الموضوع الجمالي بمفرداته وآفاقه كافة ينبض في سيال (الكلمات) من بدئها حتى منتهاها، انه لدى النورسي يصير حياة تخفق واشياء تتحدث وظواهر تقول وتحكي.. هو - بشكل من الاشكال - حوارية الانسان مع العالم والطبيعة والكون والوجود.. مع الاشياء والنبات والحيوان.. مع الملائكة والجان والشياطين.. وهو - اذا وسعنا المنظور - ابداعية الله في خلقه، وكلماته التي مالها من نفاذ.

مامن شئ او كائن او موجود في هذا العالم إلا ويعكس حالة جمالية: بالصوت، باللون، بالشذى، بالحركة والايماة، وبالتصميم البديع. مهندسة هي العوالم والاكوان في نظام الخلق المبدع.. والكتاب الذي انزل على محمد ﷺ تنزلت آياته وسوره وهي تتألق تناسباً وتناظراً وجمالاً، في موضوعاتها وفي تكويناتها الاسلوبية على السواء.. الرسول ذاته عليه افضل السلام.. هذا الانسان الكامل.. يصير في المنظور نفسه موضوعاً جمالياً لم يقل احد يوماً ما قال، ولا فعل ما فعل، ولا تشكل كما تشكل وهو في عين الله.

نحن المسلمين في العالم، منذ لحظات التأمل النبوي الاولى في جبل النور وحتى يقوم الحساب وتتكشف جماليات الجنة التي ما رأتها عين ولا سمعتها اذن ولا خطرت على قلب احد، يريد النورسي ان يقول، نحن ابناء الجمال وعشاقه.. هو لغة الخطاب بيننا وبين العالم، وطريق الوصول الى الله.

النبته وهي تشق الارض وتشتعل بالورد.. الطير وهو يسبح في السماء.. النبع وهو يتدفق بالماء.. الشمس وهي تفيض بالضوء، القمر وهو يخفق بالنور.. وآلاف المرثيات والخلائق والكائنات والاشياء

تنادينا باللغة نفسها.. وتعلّمنا.. والنورسى يتلقى الإشارة ويقيم بينه وبين الكائنات جسراً من المحبة والالفة يجتازه موعلاً أكثر فأكثر في حقائق الوجود واسراره وعجائبه.. يقول: «وهكذا.. فالجنة زهرة. والحدور زهرة. وسطح الارض زهرة، والربيع زهرة، والسماء زهرة ونقوشها البديعة النجوم. والشمس زهرة والوان ضيائها السبعة اصباغ نقوش تلك الزهرة.

والعالم انسان جميل عظيم، مثلما أن الانسان عالم مصغر، فنوع الحدور، وجماعة الروحانيات، وجنس الملك، وطائفة الجن، ونوع الانسان، كل من هؤلاء قد صور ونظم وأوجد في حكم انسان جميل. كما ان كلا منهم مرايا متنوعة متباينة لإظهار جماله سبحانه وكماله ورحمته ومحبته.. وكل منهم شاهد صدق لجمال وكمال ورحمة ومحبة لا تنتهى لها.. وكل منهم آيات جمال وكمال ورحمة ومحبة..» (١)

نبدأ بالذرات التي لا ترى.. ان تحولاتها وجولانها، يقول النورسى: «عبارة عن اهتزازات الذرات وتنقلها اثناء كتابة قلم القدرة الإلهية للآيات التكوينية في كتاب الكون. فهي ليست كما يتوهمه الماديون والطبيعيون من أنها ألعوبة المصادفة في حركة عشوائية لا معنى لها ولا مغزى؛ ذلك لأن كل ذرة، وكل الذرات تقول في مبدأ حركتها: «بسم الله» - كما تقوله جميع الموجودات - حيث أنها تحمل أثقالاً هائلة تفوق كثيراً طاقتها المتناهية، كحمل بذرة الصنوبر على اكتافها شجرتها الضخمة. ثم عند انتهاء وظيفتها تقول: «الحمد لله» حيث انها اظهرت أثراً بديعاً كأنه ينشد قصيدة رائعة في الثناء على

الصانع الجليل، لما فيه من جمال الاتقان الحكيم، وروعة صورة تنم عن مغزى عميق تحير منه العقول.. فان شئت فانظر بانعام الى الرمان والذرة..» (٢)

في مبحث آخر يتحدث النورسي عن «تسييح الاشياء»: «ان في كل شئ وجوهاً كثيرة جداً متوجهة - كالنوافذ - الى الله سبحانه، بمضمون الآية الكريمة ﴿وان من شئ الا يسبح بحمده﴾ (٣) اذ ان حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند الى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند الى اسم من الاسماء او الى كثير من الاسماء. وان الاتقان الموجود في الاشياء يستند الى اسم من الاسماء...»

الحقائق الحقيقية للاشياء، انما هي الاسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق، بل يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسم من الاسماء على ظاهر كل ذي حياة فحسب..» (٤)

بعدها يصعد النورسي لكي يتعامل مع كل موضوع جميل في الملكوت.. انه يمد المنظور في الطول والعرض والعمق والارتفاع.. يبدأ رحلته من عالم الذرات والاشياء لكي لا تنتهي بعد ذلك ابداً.. ان الكون هو مشروع مفتوح لإبداعية الله جل وعلا.. والانسان معني بالخطاب الجمالي، بل هو بالذات المقصود بهذا الخطاب..

والنوافذ التي اعطاه الله اياها تملك، اذ تلت خفقة الايمان واليقين، ان تتلقى الخطاب في كل زمن او مكان.. ومع كل الاشياء والخلائق والموجودات.. لهذا يصير الانسان مشروعاً مفتوحاً هو الآخر، قبالة الجمال، ويتلقى ويتلقى ويتلقى حتى يفيض به الوجد، وتتقاذفه

انعكاسات الوجود الجميل .. انها لذة الحس والوجدان والروح، وهي الحمرة الحلال التي لو عرفنا كيف نشربها، كما قال (الرومي) اكثر من مرة، لسكرنا بحبة الله، وهمنا في ملكوته الكبير.

اية حياة مترعة هذه التي يريدنا الاسلام للمتممين اليه؟ قارن هذا بحياة الآخرين المتضحلة، المسطحة، ذات البعدين .. الحياة التي لاتكاد تلمس جوهر الوجود، ولاتعقد بينه وبين جمالياته ايما علاقة على الاطلاق.

النورسي وهو يدين هذه الحياة، يجعل كتابه كله، من ألفه حتى يائه، بديلا .. مشروعا مفتوحا هو الآخر للوصال الجميل بين الانسان والوجود هذا الذي يريده الله ذو الجلال والكمال. يقول في الكلمة السابعة: « ان سير الزمان ومروره على كل شيء، ونفوذ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه يتخذ بهذا الطلسم الايماني صورة وضاءة حيث تحفز الانسان الى رؤية الجدة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في الوان مختلفة متنوعة وانواع متباينة لمعجزات ابداع الخالق ذي الجلال وخوارق قدرته، وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يضيئي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغير الصور في شاشة السينما من جمال وروعة الى تكون المناظر الجذابة وتشكلها. » (٥)

ويتحدث عن تعاقب الليل والنهار، وتنقل ساعة الزمن بين آن وآن .. ان الالف والاعتیاد يقتلان ما تنطوي عليه هذه الحركة في الزمن من دهشة، ويذهبان بمغزاها. لكن النورسي له رؤية اخرى لما يسميه « عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى »:

« فان دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة،

والسنوات التي تعدّ الدقائق، وطبقات عمر الانسان التي تعدّ الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعدّ الأيام، كل منها يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويمثله، ويذكر كل منها الآخر، ويأخذ حكمه. فمثلاً:

وقت الفجر الى طلوع الشمس: يشبه ويذكر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الانسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والارض، فينبه الانسان الى ما في تلك الاوقات من الشؤون الإلهية العظيمة.

اما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير الى منتصف الصيف، والى عنفوان الشباب، والى فترة خلق الانسان في عمر الدنيا، ويذكر ما في ذلك كله من تجليات الرحمة وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيخوخة، وعصر السعادة الذي هو عصر خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام، ويذكر ما في ذلك كله من الشؤون الإلهية والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فإنه يذكر بغروب أغلب المخلوقات وأقولها نهاية الخريف، ويذكر أيضاً بوفاة الانسان، وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلمّ التجليات الجلالية، ويوقظ الانسان من نوم الغفلة وينبهه.

أما وقت العشاء: فيذكر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار... وهو يذكر - كذلك - بالتجليات الجمالية لخالق الارض والسموات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح...»^(٦)

ويعن النظر في معمار الكون المدهش فيراه « كالقصر البديع؛

الشمسُ والقمرُ مصابيحُه، والنجومُ شموعُه وقناديلُه، والزمنُ شريطُ
يعلقُ عليه الخالقُ ذو الجلالِ - في كلِّ سنةٍ - عالماً آخرَ يبرزه للوجودِ،
مجدداً فيه صوراً منتظمةً في ثلاثمائة وستين شكلاً وطرزاً، مبدلاً آياه
بانتظام تام، وحكمة كاملة، جاعلاً سطح الأرض مائدة نعمةٍ، يزينها في
كل ربيع بثلاثمائة ألف نوعٍ من أنواع مخلوقاته، ويملؤها بما لا يعد ولا
يحصى من الآئه، مع تمييز كل منها تمييزاً كاملاً، على الرغم من
تداخلها وتشابكها.. وقس على هذه الأشياء الأمور الأخرى.. فكيف
يمكن التغافل عن صانع مثل هذا القصر المنيف؟

ثم، ما اعظم بلاهة من ينكر الشمس في رابعة النهار، وفي صحوة
السماء! في الوقت الذي يرى تلالؤ أشعتها، وانعكاس ضوئها، على
زبد البحر وحبابه، وعلى مواد البر اللامعة وعلى بلورات الثلج
الناصعة، لأن انكار الشمس الواحدة ورفضها - في هذه الحالة - يستلزم
قبول شُميسات حقيقية أصيلة، بعدد قطرات البحر وبعدد الزبد
والحياب وبعدد بلورات الثلج!...» (٧) ويمضي النورسي الى القول
بان « كل ذرة من ذرات الهواء - مثلاً - تستطيع أن تدخل في كل
زهرة، وفي كل ثمرة، وفي كل ورقة، وتتمكن ان تؤدي دورها هناك.
فلو لم تكن هذه الذرة مأمورةً ومسخرةً للزم أن تكون على علمٍ
باشكال ما تمكنت من الدخول فيه، وبصورته وتركيبه، وهيئته، أي
يجب ان تكون ذات علم محيط، وذات قدرة شاملة كي تستطيع
القيام بذلك!!

وكل ذرة من ذرات التراب - مثلاً - يمكن ان تكون سبباً لنشوء

البذور ونمو أنواعها جميعاً. فلو لم تكن مأمورة ومسخرة للزم أن تحتوي آلات وأجهزة معنوية بعدد انواع الاعشاب والاشجار، أو يجب منحها قدرة ومهارة بحيث تعلم جميع اشكال تراكيبها، فتصنعها، وتعرف جميع صورها، فتنسجها.. وقس على هذا سائر الموجودات، حتى تفهم أن للوحدانية دلائل واضحة باهرة في كل شيء..» (٨)

انه يتساءل: «أمن الممكن.. لمن اوجد كوناً بديعاً كهذا الكون، لغايات سامية ولمقاصد جلية، اظهاراً لكماله، ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالايمان والعبودية، ولا يعاقب اهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف؟!» (٩)

النورسى بتساؤلله هذا يختصر الامر كله بمعادلة واضحة ذات حدين، فليس عبثاً ان يكون هذا الوجود جميلاً.. وحاشا لله.. ولن يتساوى، اذن، من يتلقى اشارته فتحمله الى مقامات الايمان والعبودية والقرب من الخلاق المبدع، ومن يرين صداً الضلالة على حسه وقلبه وعقله ووجدانه فلا يكاد يرى شيئاً او يصل الى شيء. انها الخفة التي يتميز بها الانسان المؤمن وهو يتعامل مع الجمال والا فأنه موات القلب الذي لا يسمع ولا يرى « فالجمال المطلق الذي زين بتجليه هذا الكون وجمّله، والرحمة المطلقة التي ابهجت المخلوقات قاطبة وزينتها لاشك انهما منزهتان ومقدسّتان بلا نهاية ولاحد عن هذه القساوة وهذا القبح المطلق والظلم المطلق» الذي يقضي « بالموت الابدى والاعدام النهائي» للحياة ولجوهرها «الروح». (١٠)

ومرة اخرى فان هذا التناسق المدهش في الخلق، يعرض ويؤكد

بدهاءةً من اشد المعطيات الايمانية تكشفاً ووضوحاً، لانه نقيض العبث
والفوضى والتناقض واللاجدوى.. ابتداء.

وهاكم مثلاً مما يعرف النورسى جيداً كيف يرسمه بعناية ليدل ها
هنا على طبيعة التعامل مع الموضوع الجمالى، ومساحته التي تضيق او
تتسع وفقاً للمنظور البشرى نفسه « رجل يمسك مرآة تجاه الشمس،
فالمرآة تلتقط - حسب سعتها - نوراً وضياء يحمل الالوان السبعة في
الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه
أن يستفيد منها فيما اذا وجهها الى غرفته المظلمة، أو الى مشتله الخاص
الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة
على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عظيم الشمس.

بينما رجل آخر يترك المرآة، ويواجه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها
ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عال جداً وينظر الى شعشة
سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح
من بيته الصغير ومن مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس،
واجداً سبلاً الى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجري حواراً
مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية. فيناجي الشمس بلسان حاله
ويحاورها بهذه المحاورة المكلفة بالشكر والامتنان فيقول: (ايه يا
شمس! يا من تربعت على عرش جمال العالم! يا لطيفة السماء
وزهراءها! يا من أضفيت على الارض بهجة ونوراً، ومنحت الازهار
ابتسامة وسروراً، فلقد منحت الدفء والنور معاً لبيتي ومشتلي الصغير
كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور).

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها

بهذا الاسلوب، اذ إن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرأة وقبورها، وهي محصورة بحسب قابلية تلك المرأة واستيعابها للضوء. « (١١)

والنورسي، وهو يتأمل الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾، (١٢) يدين الصيغ (المدرسية) الحديثة في التعامل مع الموضوع الجمالي. انها تفقد الروح وتضييق الدهن وتنحدر بالعقل حيث يستعصي عليه استيعاب السر العظيم: « .. ان تزيين العالم وتجميله بما لا يعد ولا يحصى من التزيينات والمحاسن والنقوش البديعة، يقتضي بداهة، جلب انظار متفكرين مستحسنين ومقدرين معجبين، اذ لا يظهر الحسن الا لعاشق، كما لا يعطى الطعام الا للجائع .. » (١٣)

وكلنا يعرف جيداً انه عبر رحلته الدراسية، لم يكن ثمة رؤية شمولية متماسكة تربط المفردات المعرفية المعطاة للطلاب .. انها تقدم اليهم مفككة مجزأة، فما يلبث المعنى النهائي للحقائق العلمية ان يضيع. وثمة ذلك الجدار العازل بين العقل والروح، بين الحس والوجدان، وبين المرئيات المادية ودلالاتها الجمالية، ما يزيد في تضييع الطالب وهو يتنقل في دراسته من مرحلة الى اخرى. فما ثم الا حالات استثنائية لا يقاس عليها قدرت على كسر الحصار والخروج الى العالم في آفاقه الرحبة، والتعلم كيف يكون ضوء الشمس ليس مجرد ظاهرة فيزيائية ولكن ايضاً - وفي الوقت نفسه - معطى جمالياً ينطوى على دلالات شتى.

ان النورسي وهو يتأمل في مكان آخر الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَ

الشمس سراجاً» (١٤) يرجع الى هذه المسألة مرة اخرى «ففي تعبير السراج تصوير العالم بصورة قصر، وتصوير الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازم ذلك القصر، ومزِيناته، ومطعموماته لسكان القصر ومسافريه، واحساس أنه قد أحضرتها لضيوفه وخدامه يدُ كريم رحيم. وما الشمس إلا مأمور مسخر وسراج منور. ففي تعبير السراج تنبيه الى رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، وافهام إحسانه في سعة رحمته، واحساس كرمه في عظمة سلطنته.

فالآن استمع ماذا يقول الفيلسفي الثرثار في الشمس. يقول: «هي كتلة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الاجرام العظيمة المختلفة في الجسامة.. ضخامتها كذا.. ماهيتها كذا..»

فانظر ماذا أفادتلك هذه المسألة غير الحيرة المدهشة والدهشة الموحشة، فلم تُفدك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية.

فقس على هذا لتقدر قيمة المسائل الفلسفية التي ظاهرها مزخرفة وباطنها جهالة فارغة. فلا يغرنك تشعشع ظاهرها وتعرض عن بيان القرآن المعجز.» (١٥)

مالذي يريد النورسي ان يقوله وهو يتحدث عن (الشمس) كظاهرة طبيعية وجرم كوني؟ انه يدل على حالات عقلية ووجدانية وجمالية وايمانية، في نهاية الامر.. يربط بين الظواهر المادية والمعنوية، ويلحم ما بين شعاع الشمس الذي يضئ العالم ودفق النور الروحي

الذي يزكي الانسان ويخرجه من الظلمات. (١٦)

يتحدث النورسي ايضاً، عن الجبال التي يملك كل منها « شخصية معنوية خاصة به وتسبيح خاص ملائم له، وعبارة مخصوصة لائقة به ». (١٧)

عن النار التي تملك امرها « فلاتعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق امر يفوض عليها، فلم تحرق سيدنا ابراهيم لأنها امرت بعدم الحرق » وان تصير برداً وسلاماً! (١٨)

عن تحولات الطبيعة وتبدلاتها التي تنطوي على « ملايين الملايين من الافعال المتشابكة .. فكأن ملايين الأطوال من منسوجات ملونة رائعة تنسج امامنا في آن واحد .. حقاً ان هذه التحولات عجيبة جداً ». (١٩)

عن التناظر المدهش بين « الاشياء » في هذا العالم « البديع » ذي « النظام الشامل والانتظام الكامل كأن كل شيء فيه فاعل مختار حي يشرف على نظام المملكة كلها ويتحرك منسجماً مع ذلك النظام العام، حتى ترى الاشياء المتباعدة جداً يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر ». (٢٠)

عن « لمعان وتألّق » الانهار الجارية بعد زوال حبابها، وانه ليس من الحباب بل « من مصدر نور دائم » تماماً كما يحدث في عالم الافعال، حيث تبدلها المسرع المذهل « وتلون الحالات التي تعقبها وانصبغها بصفاتها » يدلنا على ان تلك الافعال « انما هي تجليات من هو دائم لا يزول، وقائم لا يحول » حيث تصير « الاشياء جميعاً نقوشه ومراياه وصنعتة ليس الا ». (٢١)

عن الكرة الارضية التي تبدو في المنظور العلمي مجرد سيار ذي

حجم متوسط يدور حول الشمس وهو جرم صغير قياساً على الكواكب التي لاتعد ولا تحصى، ولكنها في المنظور الايماني تكسب معنى، بل معاني اخرى.. انها «قلب الكون ومركزه من حيث المعنى.. ومعرض جميع المصنوعات المعجزة.. وموضع تجلي الاسماء الحسنی كلها، حتى لكانها البؤرة الجامعة لتلك الانوار.. ومحشر الافعال الربانية المطلقة ومرآتها.. وسوق واسع لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة، ولا سيما ايجادها الكثرة الهائلة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم.. ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخرة الواسع الفسيح.. ومصنع يعمل بسرعة قصوى لانتاج منسوجات خالدة.. وموضع عرض لنماذج المناظر السمرمدية المتبدلة بسرعة فائقة.. ومزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذيرات تربي بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة.

لهذا كله يجعل القرآن الكريم الارض صنواً للسموات.. وكأنها ثمرة صغيرة لشجرة ضخمة.. فهي في كفة والسموات كلها في كفة،..» (٢٢)

يرجع كرة اخرى الى الجبال، والارض، والشمس، فيدير المنظور من اكثر من زاوية ويحرك الكاميرا المحمولة لكي ينفذ (اللقطة) من كافة الجهات، وهو في الحالات الثلاث، يتعامل بحس جمالي مرهف مع هذه الظواهر الطبيعية، جنباً الى جنب مع الابعاد الاخرى التي تهتم الجغرافيين والفلاسفة والعلماء. (٢٣)

يتحدث ايضاً عن السماء الدنيا، بكواكبها وسياراتها ونجومها، عن حركتها المرسومة بعناية، وانسيابها الهادئ وتزيين وجهها الجميل، عن القدرة الالهية التي تعطي الشمس وسياراتها وضعاً خاصاً شبيهاً بوضع

معمل عظيم، عن وجه السماء وهو يتدفق « سطوعاً باهراً وتهللاً مهيباً،
وتبسماً وبشاشة في زينة وجمال، مما يبين عظمة سلطنة الصانع الجليل،
ومدى الدقة في صنعته الجميلة. اذ كما أن إضاءة مصابيح وانوار
واظهار مظاهر الفرح والبهجة في يوم اعتلاء السلطان العرش، إنما هو
ليبان درجة كماله في مضمار الرقي الحضاري، كذلك السموات
العظيمة بنجومها المهيبة تُظهر لنظر المتأمل كمال سلطنة الصانع الجليل
وجمال صنعته البديعة ..

تشعشع سراجها، تهلل مصباحها، تالأئو نجومها، تعلن لأهل النهى
سلطنة بلا انتهاء..» (٢٤)

ثم ما يلبث النورسى، وهو يقف منبهراً ازاء « الصحيفة الملونة
الزاهية لكتاب الكون » ان يتلو هذا النشيد المترع بالمفردات والخبرات
الجمالية: « انظر..

كيف صورها قلم القدرة المذهب .

لم تبق نقطة مظلمة لأبصار أرباب القلوب .

فكأنه سبحانه قد حرر آياته من نور .

انظر! ما اعظمها من معجزة حكمة، تقود الى الاذعان!

وما اسمها من مشاهد بديعة في فضاء الكون!

واستمع الى النجوم ايضاً، الى حلو خطابها الطيب اللذيذ .

لترى ما قرره ختم الحكمة النير على الوجود .

انها جميعاً تهتف وتقول معاً بلسان الحق:

نحن براهين ساطعة على هيبة القدير ذي الجلال
نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته
وقدرته.

نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جمّلت وجه
الارض.

فنحن الوف العيون الباصرة تطل من السماء الى الارض وترنو الى
الجنة.

نحن الوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة، علّقتنا يدُ حكمة
الجميل ذي الجلال على شطر السماء وعلى اغصان درب التبانة.

هكذا نبين مائة الف برهان وبرهان، بمائة الف لسان ولسان،
ونُسمعها الى من هو انسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع اقوالنا البينة،
فنحن آيات ناطقة بالحق.

سكتنا واحدة، طُرتنا واحدة، مسبّحات نحن عابدات لربنا،
مسخرات تحت امره.

نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبه، منسوبات الى حلقة ذكر
درب التبانة. «(٢٥)

حتى الاحجار والصخور والجواهر والمعادن، يدعونا النورسى لتأمل
«تزييناتها ومزاياها التي تترتب عليها منافع شتى». «(٢٦) وهو هنا، وفي
اماكن عديدة اخرى يضع المتفعة والجمال في كفتي ميزان، لاتشيل

احدهما ولا تثقل الاخرى، انهما - في المنظور الاسلامي - وجهان لحالة واحدة، تكاد تضم جل الكائنات، وهي ترتبط اشد الارتباط بمفهوم (التسخير) الذي يتحدث عنه كتاب الله مراراً.. وهو تسخير يضع بين يدي الانسان منافع شتى، ولكنها ليست (المنفعة) الصرفة وحسب، وانما المنفعة التي تحمل الوجه الجميل لكي تشبع في النفس حاجات اخرى.. انهما دائماً في سياق التركيب الكوني وفي نسيج الوجود: المنفعة والجمال.. « ان الله سبحانه وتعالى قد رفع ستائر العدم والاثير والسماء، عن جوهرة الشمس التي تضيئ الدنيا كالمصباح، فأخرجها من خزينة رحمته واطهرها الى الدنيا.. (انها) موظفة ومأمورة بنشر غلالات الضوء في الاسحار ولقها في الأماسي، وهكذا يتناوب الليل والنهار..» (٢٧)

وبموازاة هذا، او كأمتداد له، يتحدث النورسي في اكثر من مكان عن العلاقة الحميمة بين المنظور العلمي للظاهرة الكونية وبين المنظور الجمالي. ونحن نجد نموذجاً مفصلاً لهذه الثنائية في (الكلمة الثالثة والثلاثين) (٢٨) والتي يرد في سياقها كيف « ان «الحياة» تتضمن الرزق والرحمة والعناية والحكمة، التي كلُّ منها سارية في الكائنات ومهيمنة على أمرها وخلقها وتديرها، فكأن الحياة تقود أولئك جميعاً معها أينما حلت. اذ حالما تحمل «الحياة» في أيما جسم، اذا باسم «الحكيم» يتجلى فيه ايضاً حيث يشرع ببناء عشه بناءً متقناً وينظمه تنظيمًا حكيمًا. وفي الوقت نفسه يتجلى اسم «الكريم» ايضاً حيث يرتب مسكنه وينسقه ويزينه وفق حاجاته ويظهر آتخذ اسم «الرحيم» متجلياً ايضاً فيسبغ أفضاله وألطف إنعامه لأدامة الحياة وبلوغ كمالها،

وفي الوقت نفسه يتجلى اسم « الرزاق » بادياً للعيان حيث يهئ المقومات الغذائية - المادية والمعنوية - لبقاء تلك الحياة وانبساطها.. ان الحياة كالبثورة التي تتجمع فيها الأشعة الضوئية المختلفة، فتتداخل الصفات المتنوعة في الحياة بعضها في بعض تداخلاً يجعل كل صفة منها عين الأخرى، فكأن الحياة - بكاملها - « علمٌ » كما أنها « قدرة » في الوقت نفسه، وهي « حكمة » و « رحمة » سواء بسواء. « (٢٩) »

وتنتفح النافذة الثامنة والعشرون من (الكلمة) نفسها على مهرجان الخلق المتنوع، المحكم، الجميل الذي تحكي عنه الآية الكريمة ﴿ ومن آياته خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ أَنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾. (٣٠) ونستمع الى النورسى وهو يشير بكلتا يديه الى « أركان الكون العظيمة » حيث نجد « أن ادارة وتنويراً في منتهى العظمة يكتنفانه من كل جوانبه ويفضيان به الى غايات عظيمة وجليلة. وننظر الى مجموع الكون كله، فاذا به يتجلى أمامنا وكأنه مملكة منسقة الأرجاء، أو مدينة رائعة الجمال، أو قصر منيف باذخ، وإذا بنا أمام أنظمة دقيقة ترقى به لبلوغ حكم عالية وغايات سامية. « (٣١) »

وما يلبث ان يخلص الى الدلالة النهائية لهذا المهرجان الجميل وهي الدلالة ذاتها التي اشار اليها واكد عليها في عشرات المواقع من كلماته بل في مئاتها « فحيث ان كل أثر من الآثار البديعة الماثلة أمامنا في الكون وفي جميع المخلوقات هو كامل بديع بحد ذاته.. وان هذا الاثر البديع يشهد على فعل.. والفعل يشهد على اسم. والاسم يشهد على صفة.. والصفة تشهد على شأن.. والشأن يشهد على ذات. لذا

فإنَّ كلاً منها مثلما يشهد شهادة صادقة على صانع جليل واحد أحد واجب الوجود، ويشير الى احديته.. أي مثلما أن هناك شهادات وأشارات بعدد المخلوقات الى التوحيد، فإن كلاً منها ايضاً مع مجموع الآثار والمخلوقات في الكون إنما هو معراج عظيم لمعرفة اسبحانه، له من القوة ما للمخلوقات جميعاً..» (٣٢)

ويقول في موضع آخر: «ان ما نشاهده في هذا الكون من الاجراءات الجليلة الضخمة امثال تبدل المواسم.. ومن التصرفات العظيمة امثال تسيير النجوم.. ومن التسخيرات المدهشة امثال جعل الارض مهاداً والشمس سراجاً.. ومن التحولات الواسعة امثال احياء الأرض وتزيينها بعد جفافها وموتها.. لبيّن لنا بجلاء ان وراء الحجاب ربوبية جليلة عظيمة تحكم وتهيمن بسلطانها الجليل. فمثل هذه السلطنة الربانية تستدعي رعايا يليقون بها، ومظاهر تناسبها. بينما ترى ان من لهم افضل المزايا وأجمعها من الرعايا والعباد قد اجتمعوا مؤقتاً منهوكين في مضيف الدنيا، والمضيف نفسه يملأ ويفرغ يومياً، والرعايا لا يلبثون فيه الا بمقدار أداء تجربة مهماتهم في ميدان الاختبار هذا. والميدان نفسه يتبدل كل ساعة. فالرعايا يقفون دقائق معدودة لرؤية ما في معارض سوق العالم من نماذج الآلاء الثمينة للخالق ذي الجلال، ومشاهدين - لأجل التجارة - بدائع صنعه سبحانه في هذا المعرض الهائل، ومن ثم يغيبون، والمعرض نفسه يتبدل ويتغير كل دقيقة!. فمن يرحل فلا عودة له، والقابل راحل. فهذا الوضع يبين بوضوح.. ان وراء هذا المضيف الفاني، وخلف هذا الميدان المتغير، وبعد هذا المعرض المتبدل، قصوراً دائمة تليق بالسلطنة السرمدية، ومساكن ابدية ذات

جنان، وخزائن ملأى بالأصول الخالصة الراقية للنماذج التي نراها في الدنيا؛ لذا فالدأب والسعي هنا إنما هو للتطلع الى ما هناك.. والاستخدام هنا لقبض الاجرة هناك..» (٣٣)

ويتساءل النورسي: «أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمتمهي العدالة والميزان.. ان لا يعامل بالاحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وان لا يجازي اولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟» (٣٤)

انه - اذن - الهدف المقصود الذي تؤول اليه وتنبثق عنه سائر الظواهر والموجودات والاشياء، وهي تقدم منفعة ما للانسان المتفرد، او تمنحه جمالاً.. الهدف الواحد الذي ينبىء دائماً عن الحكمة ذاتها، تلك التي تعكس ابداعية الله سبحانه في الكون، وكلماته التي مالها من نقاد وتسخيره هذا كله للانسان الذي اريد له ان يصير سيد المخلوقات بادراكه هذه الحكمة وتعامله معها عبر مفردات سعيه اليومي، وكأنه ابدأ متحقق بالحضور المترع بالشكر والامتنان لأفضال الخالق العظيم التي لاتعد ولا تحصى.. ان الحياة - بتعبير النورسي - تظهر دائماً «تجلي الجمال الرباني» وتبرهن على احديته المطلقة. (٣٥)

في مطلع الكلمة الثانية والثلاثين، وفي ظلال الاية الكريمة ﴿لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا﴾، (٣٦) يجرى النورسي حواراً بين مشرك يبلغ به الضلال ان يدعى التملك الحقيقي لموجودات العالم، وبين اصغر هذه الموجودات: الذرة، ثم الكرية الحمراء، ثم الخلية، ثم الجسم البشري، ثم النوع الانساني. وعندما تسقط حججه مع هؤلاء

جميعاً يتوجه الى « البساط الزاهى المفروش على وجه الارض، والحلة القشبية المزينة التي البست ».. ثم يتحول لعد اخفاقه الى الكرة الارضية فالشمس والنجوم. وليس ثمة في حواريته هذه الا التأكيد على وحدانية الخلق، وتفرد الخالق المبدع بالسلطان.

والنورسى وهو يلاحق ادعاءات الشرك في هذا الحوار، فيطمسها، لا ينسى - كعادته دائماً - توظيف البعد الجمالي لإبداعية الخلق الالهي، وتفرداها، واحكامها، واحديتها المطلقة في مواجهة كل ظنون الشرك واوهامه التي لو اتيح لها التحقق لحظة واحدة، وحاشا لله، لآلت بالسموات والارض الى التفكك والفوضى والفساد. «(٣٧)

ثمة - اخيراً - ما لا يفوت على عقل النورسى وهو يتعامل مع الكتلة الكونية.. مع الذرات والاشياء والموجودات والطبيعة والعالم والسماء.. مع القوانين التي تنظمها والسنن التي تسيرها والنواميس التي تضبطها والديكورات الباهرة التي تمنح تكويناتها واشكالها وحركاتها وايقاعاتها زينة وروعة وجمالاً.. لا يفوته ان الله سبحانه الذى يبدع هذا كله، ويرسم له خرائط المسير والمصير، لا يعجزه، جلت قدرته، ان يخرق النظام المحكم الجميل بمعجزة هنا وخارقة هناك، لأنه - سبحانه - يعلو على النظم والقوانين والسنن التي ينشئها وهي ليست سوى انعكاساً مرموقاً لمشيئته المطلقة. من ثم فإنه - سبحانه - ولأسباب ظاهرة وحكمة ملحوظة حيناً، مغيبة عن قصور القدرة البشرية ونسبية رؤيتها احياناً، يخرق السنن والنواميس، ويجعل الانسان والخلائق حاضرة ابدأ في مواجهة قدرة لا يعجزها شئ في الارض ولا في السماء.

ان النورسى ، وهو يناقش معجزة انشقاق القمر في الآية الكريمة:
﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٢٨) يقف بعض الوقت عند هذه المسألة، (٣٩)
والذى يهمنى منها، بقدر ما يتعلق الامر بالموضوع الجمالي المعنى
بالجانب المادى من الوجود، ان النورسى، وهو يعالج الظاهرة من
زاويتى التاريخ والعلم، يمنحنا، بشكل غير مباشر، تفسيراً لما قد
يشهده العالم احياناً، او جوانب ومساحات منه منحسرة في الزمن
والمكان، من تناقض او اضطراب قد يطمسان على وجهها الجميل، وان
هذا لا يعدو ان يكون استثناء لحكمة يريدنا الله سبحانه، لقاعدة اكثر
امتداداً ودواماً، وتجعل الجمال جبلة الخلق الكونى وروحه وقانونه.

ان القمر الذى ينشق للحظات في عمر الزمن الكونى.. في مجابهة
المعاندين والمشركين فيعتم او تغيب اضواؤه، مايلبث ان يلتئم لكي
يعود الى وظيفته المرسومة في علم الله سبحانه ولكي يبيث النور على
الارض، ويشارك في مهرجان السماء الدنيا وزينتها!

الهوامش

- (١) الكلمات ص: ٧٥٤
- (٢) الكلمات ص: ٦٥١ وانظر الصفحات ٦٥٣ - ٦٦٥
- (٣) سورة الاسراء (الاية: ٤٤)
- (٤) الكلمات ص: ٧٤٩
- (٥) الكلمات ص: ٢٨
- (٦) الكلمات ص: ٤٤ ، ٤٠
- (٧) الكلمات ص: ٦١
- (٨) الكلمات ص: ٦١ - ٦٢
- (٩) الكلمات ص: ٦٥
- (١٠) الكلمات ص: ١١٧
- (١١) الكلمات ص: ١٤٦ - ١٤٧
- (١٢) سورة الملك (الاية: ٥)
- (١٣) الكلمات ص: ٢٠٢ وانظر الصفحات ٢٠٢ - ٢١٠
- (١٤) سورة نوح (الاية: ١٦)
- (١٥) الكلمات ص: ٢٦٧
- (١٦) الكلمات ص: (انظر الصفحات ٢١٢ - ٢١٤)
- (١٧) الكلمات ص: ٢٨٦
- (١٨) الكلمات ص: ٢٨٨
- (١٩) الكلمات ص: ٣١٥
- (٢٠) الكلمات ص: ٣١٦

- (٢١) الكلمات ص: ٣٢١
(٢٢) الكلمات ص: ٤٠٢
(٢٣) الكلمات ص: (انظر الصفحات ٤٥٢ - ٤٥٥)
(٢٤) الكلمات ص: ٧٢٠
(٢٥) الكلمات ص: ٧٢١ - ٧٢٢
(٢٦) الكلمات ص: ٨٠٦
(٢٧) الكلمات ص: ١٢٦
(٢٨) الكلمات ص: (انظر الصفحات ٨٠٨ - ٨١٢)
(٢٩) الكلمات ص: ٨١٣
(٣٠) سورة الروم (الاية: ٢٢)
(٣١) الكلمات ص: ٨٢١
(٣٢) الكلمات ص: ٨٠٢
(٣٣) الكلمات ص: ٧٦ - ٧٧ وانظر الصفحات: ١١١، ١١٨، ١٣٢ - ١٣٣،
١٣٤، ٢٠٩، ٣٢١ - ٣٢٢، ٧١٨، ٧٢٢ - ٧٢٣، ٧٤٨ - ٧٤٩، ٧٧٩.
(٣٤) الكلمات ص: ٦٨
(٣٥) يمكن احالة القارئ الى الشواهد التالية لأغناء تصوره عن معالجة النورسي
لجماليات ومقاصد الخلق الكوني: المرجع نفسه، الصفحات: ٧ - ٨، ١٠، ٣٣،
٦٠ - ٦٢، ٦٨، ٦٩ - ٧٦، ٨٧، ٩١، ١٨٠ - ١٨٤، ١٨٧ - ١٩٠، ٣٣٥،
٣٣٨ - ٣٣٩، ٣٤١ - ٣٤٦، ٧١٩ - ٧٢٢، ٧٨٢ - ٧٩٢، ٧٩٧ - ٨٠٢،
٨٠٥ - ٨١٠.
(٣٦) سورة الانبياء (الاية: ٢٢)
(٣٧) انظر بالتفصيل: الكلمات ص: ٧٠٨ - ٧١٧
(٣٨) سورة القمر (الاية: ١ - ٢)
(٣٩) الكلمات ص: ٧٠٢ - ٧٠٦



حسين عاشور

- المشرف العام على مؤسسة المختار الإسلامي للصحافة والنشر.
- تصدر المؤسسة ثلاثة مجلات شهرياً: «المختار الاسلامي» وهي المجلة الام و«هاجر» لنساء المسلمين و«زمزم» لأطفال المسلمين.
- في مجال النشر أصدرت الدار أكثر من ٧٠٠ عنوان.
- مجلة المختار الاسلامي تناولت في اكثر من دراسة عن العلامة سعيد النورسي تحدثت عن حياته ونشأته ومدرسته الفذة وأثره على الأمة الاسلامية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاستاذ سعيد النورسي

والدفاع الإستراتيجي من خلال التأمل في الطبيعة

الحديث عن الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي وتأملاته في الطبيعة ومشاهداته كسائح يسأل الكون عن خالقه، واستنطاقه لمفردات هذا الكون وتلك الطبيعة لاثبات وجود الله تعالى، وصحة رسالة الاسلام، واعجاز القرآن الكريم يستدعي بالضرورة مصطلح «الدفاع الاستراتيجي».

فالظرف الذي عاش فيه النورسي، وكذا التحديات التي واجهها كمسلم وكعالم دين اسلامي، وكذا طريقته في الدفاع والصمود لاتعبر عنها كلمة اخرى سوى كلمة الدفاع الاستراتيجي، ولاشك ان النجاح الذي حققه الاستاذ سعيد النورسي سواء في حياته او بعد مماته من خلال تلاميذه والمستفيدين من عمله في تركيا وخارج تركيا، في العالم الاسلامي، بل وفي خارج العالم الاسلامي ترجع في جزء كبير منها الى اسلوب الدفاع الاستراتيجي الذي اتبعه الاستاذ سعيد النورسي.

في الآفاق وفي أنفسهم

التفكير فريضة اسلامية، والتأمل هو افضل العبادات ، والله تعالى حين خلق الانسان زوده بالعقل، وجعل التعقل والتفكر طريقاً الى معرفة الله تعالى وجوداً وقدرة، من خلال ما بثه في الكون من آيات ومعجزات تقود حتماً الى الايمان بالله الواحد القادر اللطيف الخبير.

والتأمل في قدرة الله تعالى في كل جزئيات وكميات الكون والحياة واجب على كل مسلم بل واجب على كل انسان كطريق طبيعي لمعرفة الحق والانحياز له والاطمئنان إليه، التأمل في الاشياء الكبيرة والصغيرة على حد سواء.

وهذا الواجب اكثر وجوباً في حالة العلماء، لانهم يأخذون بيد الآخرين، ويقودونهم على هذا الطريق، ويرفعون عن بصيرتهم الغشاوة، ويجلون لهم ما غمض عليهم ويضعون على طريق التأمل علامات إرشادية.

يقول الله تعالى: ﴿ قُل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (١)

ويقول تعالى: ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢)

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣)

والآيات في هذا الصدد أكثر من ان تحصى.

وانطلاقاً من هذا الواجب الشرعي، الذي دعت إليه آيات القرآن

الكريم، فان الاستاذ سعيد النورسي «تقدم في هدوء ذكي ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة شاسعة هائلة كي يفتح له فيها مغاليق عقله وقلبه، ويوقفه امام لوحة الوجود وجمالها الأخاذ ومظاهرها البديعة، بادئا رحلته الكونية من عجائب الآفاق العلوية، الى مدهشات الكائنات السفلية، سابراً غورها، واصفاً اتساقها وتوازنها ولوحاتها الفنية الرائعة، التي تأخذ بالألباب وتضرب على أوتار القلوب، فتوقظ الغافل، وتنير بصيرة الداهل وتأخذ بيد الجاهل، الى عالم من حقائق العلم والمعرفة في إطار السببية الحاسمة، والغائية العميقة، والتخطيط الكوني الشامل الجامع الذي يقطع بوجود الخالق العظيم الذي تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن»^(٤).

كان سعيد النورسي رائعاً في تأملاته، عميقاً في استلهام المعاني الدقيقة من مشاهداته في الطبيعة ويرجع ذلك الى انه امتلك كل المقومات اللازمة لهذا الأمر فهو يتمتع بالأخلاص والتجرد مما يجعله قادراً على استقبال المعاني مهما دقت واستيعاب العظات والعبر مهما عظمت، لأن النفس المخلصة المتجردة مثل جهاز استقبال واع لا تشوبه شوشرة ولا اضطراب، ولأنه كان يملك عقلاً كبيراً ذكياً متفتحاً، وحافظة قوية وملكات متعددة حتى ان اهل زمانه اطلقوا عليه اسم بديع الزمان اعترافاً بهذا كله. حقاً لقد كان جهاز استقباله نقياً..!!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل اجتهد سعيد النورسي في تحصيل العلوم الدينية والعلمية أيما اجتهاد، وبذل كل طاقته في هذا الصدد، ولم يتوان أو يقصر في هذا المجال وذاك، فقد حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم النحو والصرف والبلاغة والتفسير والفقهاء من العلوم الدينية

العقلية والنقلية حتى حصل على العالمية وهو ابن أربع عشرة سنة، كما درس علوم الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والفلسفة والجيولوجيا والتاريخ والجغرافيا وألف في البعض منها»^(٥).

عصر العلم:

كل شيء سليم يقود الى الايمان، النظرة السليمة تقود الى الايمان، الوجدان السليم يقود الى الايمان، القلب السليم يقود الى الايمان، العقل السليم يقود الى الايمان، اى ان للايمان طرقاً متعددة، كلها تقود الى نفس النتيجة، وفي الفترة التي عاش فيها الاستاذ سعيد النورسي «١٨٧٣ - ١٩٦٠» كانت العلوم الطبيعية، وإعلاء شأن العقل تقفز قفزات هائلة، وكان الاتجاه العالمى يريد استخدام الاكتشافات العلمية في عكس طريقها الصحيح اى في الاتجاه نحو الإلحاد والتشكيك في الاديان، وكان من الطبيعي ان يستمع إليه أحد، ولأن الشيخ النورسي إستوعب روح العصر فإنه استطاع ان يقطع دابر الملحدين عن طريق استخدام لغة التأمل العقلى والعلمى القائم على الحقائق لأسباب وجود الخالق الأعظم وصحة الإسلام وإعجاز القرآن وصدق الرسول ﷺ، وأن يزيل الفجوة المصطنعة بين ما هو دينى وما هو علمى، يقول الشيخ النورسي رحمه الله «ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية - العلوم الكونية الحديثة - فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذلك»^(٦).

الدفاع الإستراتيجي :

في الفترة التي عاشها الشيخ سعيد النورسي « ١٨٧٣ - ١٩٦٠ » ، وخاصة تلك الفترة التي استطاعت فيها أوروبا أن تمزق الخلافة العثمانية ، وأن تبدد وحدة المسلمين ، وأن تلقى بظلال من الشك حول الكثير من مبادئ الإسلام ، ولأن أوروبا تعرف خطورة الإسلام على أهدافها المتمثلة في العدوان والقهر والنهب ، فانها لم تدخر وسيلة في القضاء على الاسلام وإبعاد القرآن عن حياة المسلمين وتشكيكهم في دينهم الحنيف ، يقول السياسي الإنجليزى « غلادستون » : « مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع ان نحكمهم ، لذلك لا مناص لنا من ان نزيله من الوجود او نقطع صلة المسلمين به » .

وكان من الطبيعى ان النقطة الأخطر والأهم في نظر الغرب هي إققاد المسلمين إيمانهم بالله وبالإسلام وبصدق الرسول ﷺ من خلال إدعاء: أن الإسلام لا يتفق مع العلم ، وبذلك يضربون الإسلام والمسلمين الضربة القاتلة بعد أن نجحوا في تمزق المسلمين وتفكيك وحدتهم ، وكان الرد الصحيح على ذلك أن يقطع الشيخ النورسي على الغرب هذا الهدف على أساس أنه مادامت قد وقعت الهزيمة فلا بد من نوع من الدفاع الإستراتيجي . اى وقف تحقيق العدو للمزيد من الأهداف وإيقاف مسلسل الهزيمة عند هذا الحد الذى وصلت إليه تمهيداً للهجوم المضاد . وهكذا جاء اهتمام الشيخ النورسي بأثبات اعجاز القرآن ، وصدق الرسالة ووجود الله تعالى ، وقدرته من خلال التأمل والتعقل في الطبيعة كنوع من الدفاع الاستراتيجي أمام مخططات

الغرب. ولاشك أنه أحدث الأثر المطلوب من هذا الدفاع، ولاشك أن الشيخ النورسي رحمه الله كان عبقرياً في اختيار هذا الأسلوب.

خصائص أسلوب الشيخ في تأملاته

تمتع الشيخ النورسي في تأملاته بأسلوب فذ يجمع بين الحقيقة العلمية، والاستقراء المنطقي، والشمول، والشاعرية الخصبية الرقيقة، ومنهجية رصينة غاية في القوة والوضوح والرصانة، مبتعداً في نفس الوقت عن قيود المصطلحات الكلامية وجمود المقدمات الفلسفية التي تزيد في الحيرة. بل نستطيع أن نقول أنه أحدث نقلة نوعية في علم التوحيد الإسلامي الذي كان بلغته وأسلوبه السابقين ملائماً للعصر الذي نشأ فيه ولكنه لم يعد ملائماً لعصرنا الحاضر، وهكذا حول الشيخ النورسي علم التوحيد الإسلامي من مجرد مناقشات وعرض أدلة فلسفية، إلى منهج علمي يعتمد على حقائق العلم وبساطة الأسلوب وأحتوائه على الحركة والحياة، بحيث يصبح تياراً اجتماعياً عارماً يلائم مختلف المستويات الثقافية والفكرية وليست قاصرة على طلاب العلوم الفلسفية وحدهم.

لماذا نجح الشيخ النورسي

لم تقتصر فائدة الثمار العلمية والفكرية للشيخ النورسي على الأتراك وحدهم، بل وصلت رسائله وأبحاثه التي تبلغ المائة والثلاثون رسالة إلى مختلف أنحاء العالم، وهناك الآن ترجمات لها في اللغات العربية والإنجليزية، والكردية والفارسية والأردية وغيرها، فضلاً عن عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه في مختلف اللغات، وعشرات المراكز التي



انطباعات قسم من الأساتذة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي إحسان ..

اكتب إليك ... بينما تعيش القاهرة في رعب ؛ فأخبار الزلزال وآثاره لا تزال تملأ قلوب الناس بالخوف، ولا يزال اخوك – الذي هو انا – يتصور ما حدث كأنه كابوس او حلم ..

لقد تراقصت البيوت والمنازل .. وهرع الناس من شدة الخوف الى الشوارع . وبما ان الموت حق، واينما تكونوا يدرككم هذا الموت فقد آثرت البقاء في البيت . واخترت ان اموت من الكتب علماً تشفع لي – عند الله – ذات يوم .. !

لماذا أبداً معك هذه البداية ؟ لقد اردت ..

المثقلة . لتعيش معي لحظات هذا الحادث الذي سم -

ولتعلم انني – وبالرغم من هذا كله – لم أنسك مذ عدت إلي،

وان هذا الخطاب كان مفروضاً ان يصل اليك بعد عودتي مباشرة .

ثم ماذا اقول لك .. ؟ لقد عدت من «اسلامبول» إنساناً يختلف عن ذي قبل . فقد اطمأن قلبي بعد هذا الذي رأيت وسمعت، وآمنت كما آمن كثيرون مثلي ببركات «سعيد النورسي» الذي أشعل هذه الجذوة المقدسة في بلاد كنا نظنها ضاعت وبادت كما ضاع وباد غيرها في بلاد الشرق او في بلاد الغرب .

لقد رأيت «الامل» وقد تحول الى «عمل» ! كما رأيت «كتائب

الحق» تزحف على معاقل الباطل فتدكها في هدوء وصمت، كما

رأيت «رسائل النور» وقد تحولت الى «شخص» و«جنود» تجاهد وتجتهد في سبيل إعلاء راية الايمان المحاصر باعدائه وخصومه من كل شعب وفي كل ارض.

إنك لا تستطيع تصور فرحتنا وسعادتنا. لقد حضرت قبل هذا المؤتمر اكثر من سبعين مؤتمرا.. ولكن مؤتمركم كان المؤتمر الوحيد الذي هز أعماقي من الداخل. وأثار في قلبي انبل المشاعر. وجعلني ازيد ثقة في نصر الله المؤكد لكل مؤمن مخلص صادق.

ان هذا العمل اي الدعوة إلى الله لا ينجح ولا يصلح إلا بالتجرد والاخلاص ونكران الذات. وهل نجح بديع الزمان إلا بهذا الاخلاص وهذا التجرد؟ لقد خرج من محنة الابتلاء كما خرج سيدنا ابراهيم عليه السلام من النار وما كان ذلك ليكون لولا ما يعلم الله عنه من صدق واخلاص وتجرد وفداء ..

واوصيك . بل اوصيكم جميعاً كما اوصي نفسي بالتزام هذا المنهج الرباني في القول والفعل. وفي الظاهر والباطن. وفي النية والقصد والا كانت فتنة لا يعلم مداها وشرورها الا الله.. لهذا اقول مخلصاً وصادقاً:

يجب ان تعملوا على وحدة الصف ، ورأب الصدع وجمع الشمل.. هل فهمت يا احسان ما أقصد. أعتقد ذلك

الدكتور

عبدالودود شلبي

الرحيل الى اسطنبول ا.د. عماد الدين خليل

(١)

الطائرة تتباطأ قليلاً واخي (أديب) يشير الى النافذة: انظر، انها اسطنبول.. القى نظرة سريعة.. الاضواء تنبض في كل مكان.. تنتشر على مساحات واسعة.. تعلق وتهبط كما تريد لها طوبوغرافيا الارض ان تكون.. والبسفور لا يكاد يرى في الليل.. وعلى بعد خطوات يمتد مرمرة، ويمضي مغرباً صوب تخوم الدردنيل البعيدة.. اتذكر ما قاله استاذ جامعي رحال: لقد جبت العالم كله.. من اقصاه حتى اقصاه.. فلم اجد اروع من اسطنبول.. واقول في نفسي والذكريات تتناوشني كما لو كنت في حلم: بوابة العالم.. الدرب الذي اجتازه العثمانيون يوماً في طريقهم الى اوربا.. ها هي ذي اسطنبول اخيراً.

لأول مرة اجيئ اليها.. ما كنت قد رأيتها من قبل.. مدن كثيرة حطت فيها الرحال ليلاً.. لكن هذه.. يبدو انها تريد ان تقول شيئاً ما قالته المدن الاخرى.. احس كما لو انها تقدم وعداً من نوع ما.. لكن الليل يصدها عن ان تقول كل شيء!

في المطار يستقبلنا الاحبة.. لهفتهم للقاء لا تقل عن لهفتنا.. عبر الحواجز الموقوتة تبادلنا المحبة.. بعدها بلحظات كانت الاحضان والتربيت الودود الذي تعلمناه منهم تقول شيئاً كثيراً.. تجتاز حواجز

اللغة، وتحكي عما يعتلج في الاعماق .. بعد عشرة ايام .. عندما
سنغادر اسطنبول سيكون التقليد نفسه كلمة الوداع وسنرجع الى ديارنا
ونحن نفيض حباً!

في سيارات ثلاث او أربع نجتاز شوارع اسطنبول واحياءها .. احاول
بصعوبة التقط المفتاح وان ادخل، فان الشوق يا مدينة الفاحح يعذبني
منذ زمن بعيد .. يعرش في روحي .. كأن عمره الف ستة .. والوجد
يفيض بي يا اسطنبول .. ولكنه الليل!

حططنا الرحال في فندق (ميم) .. بعد يومين سيبدأ المؤتمر
الموعود .. وسيكون اللقاء مع فكر النورسي الذي ما كنا نعرف من قبل
كم انه يوغل في شرايين اسطنبول، فيعمر العقول والقلوب .. عشاق من
شتى المستويات الثقافية والاعمار .. يرحلون معه كل يوم وهو يطوف
بهم في الملكوت، فيعلمهم كيف يصير العلم طريقاً الى الله، وكيف
يصير الايمان علماً .. يعلمهم ايضاً كيف تتوحد الاشياء، والكتل،
والحياة، والسموات، والسنن، والنواميس، والجبال، والينابيع
والشلالات والانهار .. لكي تقول شيئاً واحداً.

ما كنا نعرف ايضاً ان طلابه يتعاملون بمفردات لغة قل نظيرها بين
اللغات في عصر التكاثر والتخمة الشيعية والاكثاظ .. لغة يتشكل كل
قاموسها من البذل والعطاء والتضحية والمحبة .. ليس ثمة (انا) على
الاطلاق .. انه (الآخر) الذي يومئ فيهرع اليه العاشقون لكي يمنحوه
كل شيء!

ولسوف نعرف يا اسطنبول، قبل هذا وذاك ان هذا الدين يعود كرة اخرى لكى يعرض كالورد والفل والريحان في أحيائك وازقتك وجوامعك وشوارعك وساحاتك .. يخضر عوده يستوى على سوقه، وينث العطر على الغادين والرائحين، مذكراً اياهم، صباح مساء، ان رسول الله ﷺ هكذا ارادها ان تكون .. حياة مفعمة بالعطر والريحان، مغسولة بالنسمة البليلة المتدفقة من مكان ما في السماوات .. تمسح وهي تمر، كل الآلام والعذابات التي يئن منها الانسان في القرن العشرين .. تداوي الجراح التي اثخنه بها حضارته الكميية الجانحة .. وتعطيه الامن والتوحيد والتوازن والفرح .. وها هو ذا النورسي في (كلماته) يجيء في الوقت المناسب تماماً لكى يذكر بهذا، فيضع البذار وينتظر الوعد!

(٢)

وأجدني في اليوم التالي قبالة السلطان احمد .. وايا صوفيا .. ومخزن المياه الروماني العتيق .. الجامع الكبير وهو يتمحض لله .. وجاره المحمل بترات القرون يئن من تداخل الاصوات، التوحيد النقي الخالص كالبلور وهو يدافع غبار الشرك والوثنية .. والسرداب العتيق ذو الممرات الضيقة والاضواء الخافتة، وهدير المياه المتدفقة من السقوف كالشلال، يتوافق مع الاصوات الاوبرالية فينقلك الى التاريخ.

ها هنا كل شئ ينقلك الى التاريخ .. ولكن الجامع لا يقف عند هذا .. انه يمضي بك بعيداً باتجاه كل شئ اسلامي في هذا العالم .. يذكرك ويدعوك .. يناديك .. وسواء عليك اسمعت النداء ام لم

تسمعه، فانه يمضي بلغته الخاصة التي نعرفها جميعاً لكي يصعد
بالعاشقين الى السماوات العليا.

القبة الوسطية الفارهة ذات الزخارف والنقوش والخطوط التي تكاد
تسبح بحمد الله وهي تتثنى وتتعاشق وتلتقي وتفترق.. هنا وهناك..
التوافذ العليا ببلورها الملون الذي يتحدث اليك هو الاخر بلغة الموشور
عندما يتكسر ضوءه فيمنحك الاحمر والازرق والاصفر والبرتقالي..
القباب الصغرى وهي تطوف بالقبة الأم وتعينها على ثقلها فتمضي به
قليلاً صوب الاسفل.. وهي مع وظيفتها المعمارية هذه تمنح حالة
جمالية ما عرفتها جوامع العالم كله.. ما عرفتها سوى اسطنبول انها في
كل مكان هناك تطل عليك بهذا التركيب المدهش من القباب الصغرى
التي تتحلق حول الام.. تتدرج وتتلامع، ويتكور بعضها الى جوار
بعض.. لكأنها الاكف التي تنحني منطوية على الخشوع والتسليم،
ومن بين منحنياتها ذات الجلال تبرز بين لحظة واخرى، منارة، تحترق
الفضاء كالسهم ميممة وجهها صوب السماء.. منائر عديدة تنبثق هنا
وهناك.. رفيعة.. انيقة.. مصعدة الى فوق.. الاصبغ المتفرد الذي
يشير دائماً الى الله الواحد، حيث، بعد التحرر من شد الارض، لا شئ
سوى الاحساس الممتلئ الذي يكاد يلمس ويرى بانه ليس ثمة الا الله
وان لا اله الا هو!

اللحظة تأخذ دهشتي بالتلاشي، وادرك تماماً، لماذا ظل ابناء
اسطنبول، وهي تقف بمواجهة اوربا تماماً.. ازاء حضارتها التي لا
تعرف الله.. لماذا ظلوا يحتفظون بأيمانهم بعمق وعذوبة معاً.. ان

المفتاح وكلمة السر تبدأ هاهنا.. في الجامع.. واتذكر عبارة غارودي (كل شيء يبدأ في الجامع ويؤول اليه).. كلماته المؤثرة وهو يتحدث عن حجارتها التي تكاد تصلي وعن النور الذي ينقلك الي عالم آخر، فيما وراء هذا العالم، مشع في هذا العالم.. اتذكر ايضاً عبارة جاك ريسلر: (في المسجد ينبض قلب الاسلام، وفي ارجائه يحس المرء احساساً حياً انه بحضرة الله. الحق انه لا شيء في المسجد الا البساطة والتجانس والجمال).

والمسلم - كما يحكي فيليب حتي - ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الاروقة حتى يجد في نفسه ميلاً شديداً الى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعاً في الوقت نفسه الى السمو نحو الملأ الاعلى. وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة اشبه بالاصبع التي تنتصب مشيرة الى السماء. وما في جوف المسجد فان القبة المتلائة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء.. وهؤلاء المصلون حولك، معاً او فرادى، في كل مكان من المسجد يولدون في النفس شعوراً بمشاركة تسع العالم كله.

حقاً، ان هندسة معمارية كهذه هي كما قال اوليغ غرابار يوماً: انها نقل بصري لرؤية العقيدة الاسلامية الكونية!

اعرف ايضاً لماذا ظل الصوت التركي غنياً الى هذا الحد، عذباً مؤثراً، ينطوي في اللحظة الواحدة على عشرين طبقة او تزيد.. بعد ايام سيقدر لي ان اسمع توشيحاً.. ان اذوب وجداً وحنناً في صوت تركي ينشد (شفاعة يا رسول الله).. صوت آخر يخاطب بنبرة عتاب

متشكية، كل الذين لا يقدرّون على تحمل مشاعر الصعود الى فوق: «الم اقل لك؟» .. بعد ايام سأكافح وانا اجلس جوار اخ نورسي يقود سيارته في جبال بورصه، لكي امنع دمة ان تفارق مكانها.

هنا، قبالة السلطان احمد، قبالة ابداعية المعمار المدهش (سنان) .. تحت القبة الكبرى تماماً .. ازاء الخطوط والنقوش والزخارف .. في مواجهة البللور ذى الالوان .. في غمرة الفرح الروحي الممتزج حتى آخر جذر فيه بالبهجة الحسية، يريد الانسان ان يصرخ .. ان ينشد ويعني .. ان يرفع صوتاً، لكي يتخفف بعض الشيء من معاناته .. ان يصب قليلاً من الماء على الجمر الذي يتسعر في اعماقه.

وانت تتذكر محمداً عليه افضل الصلاة والسلام، تجده حاضراً قبالتك وتتذكر معه يوم الهول لا تملك الا ان تتوسل اليه، ان ترفع ازاءه اعذب واعمق وارق صوت في هذا العالم، متشبثاً بأذياله: شفاعة يا رسول الله ..

وانا انزف دمعي بصمت في محاولة للتشبث بأذيال رسول الله، كنت ادير بصري في ارجاء الجامع الكبير .. هنا يا اسطنبول كان البدء .. وهنا سيبدأ الرحيل الثاني الى الله .. والعالم .. وكل الاشياء الجميلة التي حدثنا عنها النورسي في كلماته ..

والتجوال في ايا صوفيا يورث حزناً .. محاولة يائسه تكافح من اجل ان ينطفئ ألق التوحيد الذي هو اغلى واعمق واثمن ما يملكه المسلم في هذا العالم .. واجتياز بين الممرات الضيقة للحمام الروماني العتيق، يضع

الانسان في دائرة الضيق والاكتئاب .. واريد ان اعود الى السلطان احمد .. اتمنى ان ابقى الساعات الطوال في مسجده الكبير .. هاهنا يستعيد الانسان البهجة والفرح .. يتجاوز كل انماط الكآبة والحزن التي تفرض حصارها القاسي في زحمة القرن العشرين.

ان السلطان احمد .. فيما بعد: محمد الفاتح، والسليمانية، وبايزيد .. وغيرها عشرات الجوامع الكبرى، تفقك قبالة التاريخ، لكنها لا تأسرك فيه .. انها، بقوة العقيدة التي انشأتها وزيّنتها، تمضي بك خارج الحيز المحدود، فتحررك من اسر الزمن والمكان .. خارج دائرة التاريخ تماماً ..

في جوامع اسطنبول عرفت تماماً كيف يكون الانسان، في اللحظة الواحدة، في التاريخ وبعيداً عنه، وكيف كان النورسي وهو يتحدث عن الذرات والاشياء، يتحرر من شدها واسرها وينطلق خفيفاً رشيقاً، الى الفضاء اللانهائي وهو يتأبى على مقولات الجغرافيا ونسبيات التاريخ.

(٣)

وهاهو ذا البسفور يحتضن مرقد ابي ايوب بحنان .. ثمة لغة يصعب الامساك بحروفها، تتشكل بصمت بين المضيق الهادئ العميق والشهيد القادم من اعماق الصحراء، صارخاً عند بوابات القسطنطينية الغارقة في الشرك .. الضائعة .. التي فقدت هويتها منذ زمن بعيد:

أفتحي!

وهو يدلّف الى الشيخوخة، يتسلق الاسوار بخفة مقاتل في العشرين، فيلقى الله هناك! في تاريخ جد مبكر، اراد ابو ايوب الانصاري، وكل المجاهدين الاوائل، ان يفتحوا الابواب، وان يمنحوا القسطنطينية، واوريا من ورائها كلمة التوحيد.

في علم الله وقدره الذي ينسرب في الجاهيل ما كان مكتوب لهم هذا.. فيما بعد.. في عصر سليمان بن عبد الملك، دقت ابواب القسطنطينية مرة اخرى، فلم تفتح.. بعدها بعشرات السنين اوغل الرشيد في الاناضول ميمماً وجهه صوب البوابة الشرقية نفسها.. فلم يكتب له الفوز.. يكفي المسلمين شرفاً انهم حاولوا.. انهم استكملوا الاسباب.. وتركوا الباقي على الله.

ليس ابو ايوب وحده.. عشرات الآلاف من اخوانه واحفاده تساقطوا عند الاسوار ودفنوا هناك. واليوم، قبالة مرقد المتواضع في حوض البسفور، يتوحدون جميعاً.. والانصاري ليس وحده.. سيجيئ محمد الفاتح.. ومعه عشرات الالوف من المجاهدين الاتراك لكي ينضموا اليهم.. يطلبون الشهادة هم الآخرون عند اسوار القسطنطينية.. يدقون ابوابها صارخين كرة اخرى: افتحي.. وسيصير محمد الفاتح ستاراً لقدّر الله!

خذها يا محمد.. فلقد آن الاوان..

يدخل الفاتح.. وما ان تطأ قدماه الارض مترجلاً عن فرسه، حتى

يخر ساجداً لله . ومن ورائه مئات الآلاف من المجاهدين .. بعضهم كان
قد استشهد منذ ثمانية قرون .. بعضهم يستشهد اللحظة .. آخرون
اقتحموا معه الاسوار!

الآن .. الكل ينهض .. وابو ايوب يربت على كتف الفاتح: بارك الله
فيك .. ها انت ذا تمنحني الماء بعد عطش تسعمائة عام او تزيد .. ها
انت ذا تبل ريقى .. فبارك الله فيك ..

اقف قبالة مرقدك يا ابا ايوب لا أدري ما اقول .. اقرأ الفاتحة ..
اتلفت بحثاً عن المزيد ذكريات مترعة بالحزن الكبير تتقاذفني .. اجدني
كرة اخرى قبالة التاريخ وهو يتشكل من جديد .. والسؤال المعذب
نفسه يهدر في كياني الذي يتداعى الى حد الاعياء .. ينذر بالسؤال
نفسه: لماذا؟ لماذا وقد فتح العالم على ايديكم يتراجع الاحفاد،
فيدخل عليهم الغرباء الابواب، ويقضم الجراد الاصفر ما زرعه فما
يلبث ان يصير حطاماً .. لماذا يا ابا ايوب؟! لماذا يا محمد الفاتح؟!

صعب ان تعيش التاريخ وهو يتنامى قبالتك .. في دمك واعصابك
وذاكرتك .. واصعب منه ان تجد نفسك واهليك وديارك، ازاء كل
انتصاراته الكبرى تنزف حزناً والمأوضياًعاً.

نصلي في المسجد ثم ما نلبث ان نغادره عائدين .. عن شمالنا
كانت تطل بين الحين والحين الاسوار العتيقة، مخترقة شوارع اسطنبول
وساحاتها .. نجتاز ثلثة واسعة في السور وندلف الى هناك .

من يجيبى الى اسطنبول، حتم عليه ان يزور مرقد ابي ايوب، وان

يسلم عليه، والا فانه لن يجد اسطنبول.. انه بداية الطريق الطويل الى الفاتح.

ربين الرجلين.. الشهيد المتغرب الآتي من ضمير الصحراء، والشاب الفاتح القادم من اعماق الاناضول، نهضت اسطنبول، شاهدة على انه ما من قوة في الارض يمكن أن تقف في وجه امة عرفت كيف تصير شهادة التوحيد هويتها المتفردة بين الامم والجماعات والشعوب.

(٤)

في المساء دعينا لحضور واحدة من حلقات النور المنبثة في شرايين اسطنبول.. الصلاة العليا تزدحم بالمستمعين.. يتحلّقون بشغف حول استاذ يقرأ مقاطع من رسائل النورسي التي لا تكف عن العطاء.. من اعمار شتى جاؤا.. تبدأ بالصبا وتنتهي عند حافات الشيخوخة.. رأيناهم هناك شباباً وكهولاً وشيباً.. تتجه ابصارهم صوب البؤرة نفسها... يتوحدون قبالة النورسي كما لو كان حاضراً ازاءهم.. والكلمات تمطر عليهم امنا ومحبة وبقينا وسلاماً.. تمنحهم التين والزيتون والكمثرى.. تضعهم في قلب العالم، وتطلق بهم من هناك صوب الملكوت.. ان قراءة واحدة في احدى رسائل النور تكفي لأن تلبى اشواق الانسان.. لا يريدك ان تنفصل عن العالم، سعيد الجديد هذا.. ولكنه يعطيك في الوقت نفسه الفرصة لأن تطير في الفضاء الكوني بألف جناح.. لا يدفعك الى الفرار من التحديات انما يضعك قبالتها تماماً.. ويعطيك (الكلمة) التي بها تستجيب فتجتاز المجاهيل..

لم نكن نعرف التركيبة لكننا نقرأ في نظراتهم وهي تلتهم (الكلمات) في شوقهم المتدفق للحاق بالاستاذ.. في صمتهم الذي يكاد يحكي ويقول.. ما الذي يقرأه الاستاذ.. ويكفي ان يكون الاخ (احسان) الى جوارك لكي تكسر حواجز اللغة، فيصل اليك، بقدرته المتمرسة على الترجمة، ما يريد الآخرون ان يقولوه.. للحظات كنت احس بانني اكاد اطير معهم الى هناك.. عابراً بحار الدنيا وجبالها ومتاريسها، مصعبداً الى الفضاء الذي تشف فيه الروح وينقذح زناد العقل، ويصير الانسان - هكذا - قبالة الكون، مشاركاً في المصير.

تخترق ذاكرتي ثلة من الذين عاشوا معه ولا يزال بعضهم على قيد الحياة.. احدهم يجلس قريباً مني.. انه الاخ الكبير (م) اتيح له ان يرافق الشيخ في سنه الأخيرة.. وبعد ثلاثين سنة من رحيله، يظل (م) يتذكر اللحظات التي عاشها مع استاذة.. الزمن الواعد بالعطاء.. ما من فرصة تتاح له حتى يتدفق كلامه عذباً سائغاً كالعسل المصفى وهو يحكي عن (سعيد).. حديثه عنه لا يمل رغم حاجز اللغة.. لم يكن لسانه الذي يتحدث.. كان يفتح قلبه على مصراعيه ويأمره ان يقول.. كنا نلمس هذا في كلماته.. في نظراته المترعة بالشوق لأستاذة الراحل.. بالمحبة والاكبار.. بالعشق الفريد الذي يصعب وصفه.. نظراته التي يلتقي فيها التواضع والكبرياء.. الحزن والفرح.. البراءة والهم الكبير.. الطفولة والشيخوخة.. العفوية والتوتر.. نظراته التي اسرتنا جميعاً والتي احببنا من اجلها..

اي تعلق هذا بالاستاذ؟

لا ادري لماذا كنت اشعر بالحزن وانا انظر اليه .. وهو يدير عينيه
بحذر هنا وهناك .. كأنه طائر متفرد ارغم على مغادرة عشه والقي به في
المجهول .. لكنه بين لحظة واخرى ما يلبث ان يحس بالامان .. وكان
يهمني ان اتابع هذا الاحساس .. فحيثما جاء اسم النورسي على لسان
احد المتحدثين، حيثما دار الحوار حول هذا الجانب او ذاك من فكره ..
كنت اجده يبتسم بهدوء ويخفض رأسه، كما لو انه وجد عشه
الضائع، وهو اذ يحس بالامان يتدفق كرة اخرى بذكرياته العذبة عن
الشيخ .. لا يرى بأساً أن يجلس عند اقدام المتحدثين ما دام يعرف
سلفاً انهم سيفتحون الابواب لكي يدخل بهم الى عالم النورسي
السعيد .. فيرتاح ..

احببناه كما لم نحب احداً من تلامذة الشيوخ الكبار ومريديهم ..
انه مريد من نوع فريد .. زماننا الممحل هذا بأمس الحاجة الى عشرات
من مثله .. الى العشق الكبير الذي يتدفق من قلبه تجاه (الاستاذ) فينير
الطريق امام السالكين ويمنحهم التعاليم .

قرأت عشرات الكتب ومئاتها ولكني ما تعلمت منها قدر ما تعلمته
من الأخ الكبير (م) .. اسأله ونحن في طريقنا الى قرية (كوزلجة)
المطللة على (مرمرة) عند حافات اسطنبول الغربية .. هل كان سعيد
يمزح؟ وما هو طعامه المفضل؟ وكيف كان يقضي اوقاته خارج دائرة
القراءة والكتابة؟

يتحفز قبل اكمال السؤال .. محبته للأستاذ حفرت في ذاكرته كل
صغيرة وكبيرة فما من قوة في الارض بقادرة على ان تدفعها الى دائرة

النسيان .. حاضر هو مع استاذة في تفاصيل حياته اليومية ومنحنياتها ..
ولك ان تعرف مسبقاً أنك ستلقى الجواب الذي تطمح اليه، بكل
دقائقه وخطوطه ومفرداته ..

كان سعيد يحب المصارعة .. رياضته المفضلة كانت قبل ان تفترس
الهموم الكبيرة صحته وعافيته .. الكل تمكن من الفوز عليهم .. مرة
واحدة فقط كاد خصمه ان يتفوق عليه .. فما كان من سعيد الا ان
تحسس قبضة خنجره .. استله من مكمته ووخز به الخصم .. فأثر هذا
الانسحاب .. لم يعتد سعيد ان يهزم في حياته .. ان ينكسر لأحد ..
هكذا قال الاخ (م) باعتزاز ..

العسل المصفي كان طعامه اليومي .. وجبته المفضلة .. يكفي انها
تذكره بكتاب الله .. بآياته البينات التي تحدثت عن النحل وعن عسله
الذي يشفي الناس .. يكفي هذا لكي يقيم الشيخ معه علاقة مودة لم
تفارقه حتى اللحظات الاخيرة.

سألت كثيراً وتلقيت كثيراً والأخ (احسان) يمارس مهمته الصعبة
سفيراً بين العربية والتركية .. ومن وراء كل سؤال وكل جواب، كان
الاخ (م) يفرض على الذين التقوه، ربما لأول مرة حضوراً من نوع
غريب يجعله يدخل قلوبهم من غير استئذان، ويعرض هناك ..

وماذا يقول المرء عن الآخرين (الاخ ف والاخ آ والاخ
ب .. و .. و ..) ممن وضعوا حياتهم كلها في خدمة الاستاذ والتمكين
لفكره في الارض؟ ان تفوقهم المدهش يبدو هاهنا: القدرة على التجرد

الانسان .. واللّه .. والكائنات .. هذا الذي تحدث عنه النورسي فأطال
الحديث ..

ما يلبث المصعد ان يحملنا الى الدور الاخير لأداء الصلاة وشرب
الشاي .. صلاة فارهة تطلق على مساحات واسعة من اسطنبول ..
شمس الخريف تخترق زجاجها الواسع بهدوء .. والخرائط الكبيرة
المعلقة على الجدران تضع العالم بين يديك ..

ها نحن قبالة اسطنبول .. والشمس .. والعالم .. اية صلاة هذه التي
تؤدي هنا؟ واي توافق بين الظواهر والاشياء؟ .. كانت المحبة تعمر
قلوبنا .. من العراق جئنا .. ومن مصر .. وتركيا .. واوربا .. نتحدث
بألفة كما لو كان احدنا يعرف الآخرين منذ مئات السنين .. نصلي
سوية فنزداد توحداً وانسجاماً .. الحياة الاسلامية - اخاطب نفسي -
تتفوق على حياة الآخرين .. كأننا في مضممار العاب الساحة والميدان ..
والمسلمون يهرعون الى خط النهاية، وقد خلقوا وراءهم .. وراءهم
بمسافات متطاولة كل العدائين ..

اقول لأخي (عاشور ..) الذي يدخل قلوب الذين يعرفونه جيداً
بغير استئذان: انظر .. انه مكان مناسب تماماً لأداء الصلاة .. ان الاخوة
الأتراك يعرفون تماماً، بتمرسهم على التعامل الجمالي مع الظواهر
والاشياء، كيف يختار الموقع المناسب تماماً ..

الاخ (.. بهجت) كان يحكي عن كتابه الذي لقي رواجاً كبيراً
(قصص الحيوان في القرآن الكريم) وأسأله عن مؤلفاته الاخرى فيقول

انها ليست كهذا الكتاب الذي تجاوزت طبعاته العشرين.. انه يغربني
بتجاوز حاجز الادب واستجداء نسخة منه يرسلها على عنواني
بالبريد.. فيستجيب الرجل مسروراً..

ترى هل سيصلني الكتاب!؟

ويدور الشاي ومع الشاي حديث عن الصوت التركي العذب ذي
الطبقات الغنية والقدرة العجيبة على التعبير المؤثر العميق.. وثمة
اخوان نورسيان كانا يجلسان قبالتنا، اخذا يدندنان بموشح عذب..
للحظات احسست انني اكاد اذوب وجرماً.. كما في كل مرة سمعت
فيها صوتاً تركياً.. وتمنيت لو انهما يستمران ولو ان عقارب الساعة
تتكسر - كما يقول الادباء الطليعيون - ولا يتبقى ثمة خارج نطاق
الزمن والمكان، سوى الصوت الذي ينقل بنبراته المتوجعة الشاكية عشق
الله.. والرسول.. وكل القيم والموجودات والاشياء الجميلة في هذا
العالم. الوجد الكبير هاهنا.. في الصوت.. وهو قد ير على ان ينقلك
الى اللامتناهي.. يحررك من اسر المحدود.. ومن كل ما يعذبك في
هذه الدنيا.. يشقك وجرماً وحرزناً يصعب وصفهما.. ويجعلك تطير
الى السماوات بأجنحة لا تدري من اين؟

الوجد الكبير هو هذا.. ولسوف اظل اذكر الموشح التركي كأعذب
صوت سمعته في حياتي واكثرها تشكياً وجرماً..

(٦)

نغادر المدرسة في طريقنا الى الجانب الآخر من اسطنبول.. الجانب

الآسيوي.. نجتاز جسر البسفور الطويل، ونصعد في المرتفعات..
المدرسة الاخرى التي نيمم وجوهنا اليها هي في اعلى نقطة هناك..
موقع يطل على اسطنبول كلها ويضعها والبحار التي تتخاصر معها بين
يديك.. السيارات نفسها اخذت تمن من عنف الصعود.. والاخ
الدكتور (شلبي) يفضل النزول والتوجه الى المدرسة مشياً على
الاقدام، على ان يقع المحذور فلا يتاح لزوجته ان تراه مرة أخرى!

رائع هذا الرجل.. انه في لحظات الجد يستطيع ان يبكيك.. ثم ما
يلبث ان يخترق جدار الحزن، على حين غفلة، لكي يطرح تعليقاً او
يحكي نادرة مما سمعه او وقع له، فيرغمك على ان تضحك.. اليس
هو الذي فك لغز الاخوين بهجت وعاشور اذ رأهما يتهاالكان على
شراء هدايا لزوجتيهما من الملابس الجلدية بالشعار الذي ازال كل
غموض (الجلد او الجلد).. بينما هو، ازاء الحاح اشد عنفاً من زوجته
يختاره شعاراً آخر.. على النقيض تماماً: (النصر او القبر)!

ندلف الى المدرسة يتلقانا مديرها الشاب الذي يتقد حيوية ونشاطاً
.. يقودنا الى غرفة الادارة المطلة على الوادي.. انها مدرسة العلوم
الشرعية - يقول - تتلقى الطلبة من مختلف البقاع والاعمار فتعلمهم
القرآن والعربية وعلوم اسلامية اخرى، لكي ما يلبثوا ان يعودوا الى
ديارهم وقد زودوا بما يمكنهم من اداء مهماتهم هناك.. بعضهم من
تركيا نفسها وبعضهم الآخر من بلدان آسيا المتناثرة في فجاج الارض..
التقينا المنغولي والتركستاني والاذربيجاني والداغستاني والتركي..
وكان بيننا العراقي والمصري والانكليزي والالماني.. ها هي ذي الامية

الاسلامية التي تجمع احفاد هولاء الى احفاد الفاتح وابي ايوب في وحدة تنصهر فيها كل حواجز الجغرافيا والتاريخ ولا يتبقى ثمة سوى العقيدة التي نسجت المظلة الكبرى في هذا العالم.. مظلة (لا اله الا الله).. المظلة الوحيدة الباقية، المنقسحة، القديرة على مجابهة الأعاصير، حيث تمزقت وتمزق قبالة اعيننا في كل يوم خيام ومظلات صنعها واقامها اناس ما كان بمقدورهم مطاولة تحديات التفكك والتلاشي والفناء.. لأنهم ما عرفوا الله.

ثمة شاب جركسي يرتل آيات من القرآن بصوت عذب قدير على التعبير.. لكأنه يعرف العربية منذ يوم ميلاده.. اي سر هذا في الذين يتعاملون مع كتاب الله؟

ويطلب الدكتور (شليبي) من شاب منغولي ان يرتل قليلاً.. يرغمك هذا على ان تتذكر هولاء، وسقوط الخلافة العباسية، وضياع بغداد.. وان تقارن بين ما فعله الاجداد وما يتوق اليه الاحفاد المتحدرون من الصلب نفسه، بقوة هذا الدين وسره المعجز..

يرتل المنغولي بعربية فصيحة ونحن نهمهم: سبحان الله، ونمعن النظر فيه بأعجاب.. ويقول المدير الشاب: يعود هؤلاء الى ديارهم لكي يقوموا بأنفسهم بتعليم ابناء شعبهم المتغرب، المنفي في الابعاد.. شيئاً عن كتاب الله وتعاليم رسوله عليه السلام.. بعدهم نجيب وجبة أخرى.. ويسأله شليبي: هل انت متزوج؟ يجيب المنغولي الذي كان يبدو كما لو انه لم يتجاوز العشرين من عمره: نعم!

– وهل لديك اطفال؟

– اثنا عشر!

– (يا ابن الجنية)!

لم يدرك المنغولي نكته شلبي.. لم يدرك ايضاً سبب ضحكنا العميق..

بعد لحظات، جاء ثلاثة اطفال في عمر الزهور.. من اصقاع شتى.. وراحوا ينشدون (طلع البدر علينا).. لست ادري وانا انصت اليهم لماذا تذكرت، فجأة، التصل الحاد الذي يخترق جسدنا في البوسنة والهرسك هذه اللحظة.. لست ادري لماذا تذكرت كل احزان المسلمين في العالم.. القتل.. والذبح.. والجوع.. والتغرب.. والحصار.. والعطش؟! لأن احد الاطفال – ربما – كان بوسنوياً جيئاً به من هناك بعد ان ذبح ابوه وامه واخوته لكي يحتضنه الملجأ؟ ام لأننا جميعاً.. مسلمي القرن العشرين، نعاني من القتل، والحصار، والجوع، والعطش.. من التغرب الذي حدثنا عنه معلمنا العظيم عليه افضل الصلاة والسلام؟

كافحت من اجل الابقاء على دمعتي اطلتا من عيني، في مكمنهما.. لم استطع في نهاية الامر، وانا انصت للطفل البوسنوي الذي قطع من شجرته المتيسسة، هناك في سرايفوا، وجيئاً به وحيداً، غريباً، لكي ينشد في مدرسة تركية نائية، بعفوية وصدق وعذوبة (طلع البدر علينا؟) اي قلب يملك ذرة من ايمان، بمقدوره ان يحبس

دموعه عن الانطلاق!؟

والتفت الى اخوة الرحلة، فمن عجب ان اراهم يبكون بصمت هم
الآخرون.. اتراهم كانوا يتذكرون الشيء نفسه؟

وشلبي الذي اضحكنا قبل لحظات، ها هو الآن ينزل عن كرسيه
يجلس على الارض ثم يزحف قليلاً صوب الطفل فيحتضنه ويقبله..
كان شلبي يبكي هو الآخر.. وتذكرت - لست ادري لماذا - كيف ان
دموعنا هذه، قد تكون - رغم عجزنا وقصورنا - جواز سفرنا الى
رسول الله.. وسيلتنا في ان نقف قبالة يوم الحساب الكبير، فنصرخ
مستغيثين: (شفاعة يا رسول الله).

النصل حاد.. وهو يغوص في لحمنا حتى العظم.. ويزيدنا عذاباً
اننا نرى المذبحة قبالتنا.. فلا نستطيع ان نفعل شيئاً..

في يوم ما.. موغل في التاريخ، زرع العثمانيون الاسلام في اعماق
اوربا، قريباً من حافات الغربية.. وعندما ما سقطت الخلافة تداعي
الصليبيون الجدد لواحدة من ابشع عمليات التصفية العقيدية في
التاريخ البشري.. مجزرة اخرى كتلك التي شهدتها الاندلس على يد
الكنيسة والسلطة ومحاكم التحقيق.

والآن فان البوسنة والهرسك تتعرضان للسكين نفسها.. ان الغربيين
لا يريدون ان يكون في اوربا موطن قدم لهذا الدين لأنهم يعرفونه
جيداً.. عقيدة انتشارية حركية ترفض السكون.. تتأبى على الاسرفي
الحيز.. تتحرر من مقولات الجغرافيا والتاريخ وتنطلق لكي تعرش في

الآفاق.. يدركون هذا جيداً، لذا فانهم قد يختلفون في كل شيء الا في هذه.. ولكن - اقول في نفسي متصبراً - ان للبيت رباً يحيمه.

ولقد ظل هذا البيت على تقلبات التحديات والاحداث قائماً فقلماً - بارادة الله - حيث تداعت بيوت الآخرين وصارت حطاماً..

نغادر المدرسة لكي نقف لحظات عند القمة الخضراء المطلة على اسطنبول الاوربية.. والجسر. والبسفور..

واحدة من اجمل بقاع الارض، وتزيدها لحظات الغروب الواني روعة وجلالاً.. كان قرص الشمس الذي اصبح الآن برتقالياً موشحاً بخطوط حمراء بلون الدم، ينحدر بهدوء خلف البحر.. خلف الهضاب الغربية.. وراء العالم.. لكي ينغرز في مكان ما عند حافات اسطنبول.. مانحاً الارض والبحر، والروابي، والاشجار تلويحة الوداع، حيث كانت تتلامع عن بعد، كالعادة، مئات القباب والمناظر التركبية ذات التكوين المعماري المدهش، متجذرة في الارض، شاخصة الى السماء.. شاهدة على انه ما من قوة في الارض قادرة على ان تجرد اسطنبول عن وجهها الاسلامي الاصيل.

هنا، وفي كل مكان من العالم، تتكور القباب وترتفع المنائد الى فوق لكي تقول الشيء نفسه.. لكن هذه.. هذه التي ترفع الخطاب الى اوربا النصرانية.. هذه التي تتمحّض بالنداء لله الواحد قبالة الشرك والتثليث.. هذه التي تحرس وتحمي اسلامية اسطنبول من ان تصير اندلساً ثانية.. هذه مسألة أخرى.. من ثم فان ايقاعها المتوافق في فضاء

اسطنبول الذي يستقبل الليل عند الحواشي البعيدة.. فيلتمع بالضوء..
والوعد.. يقول اشياء اكثر بكثير من كل ما تقوله المنائر المبتوثة في
الاصبغ النائبة من عالم الاسلام.

(٧)

كان يوم افتتاح (المؤتمر) مشهوداً..

ونحن ندلف الى قاعة (مصطفى كمال) في قلب اسطنبول، كنا
نشق طريقنا بصعوبة وسط حشود كبيرة من المشاركين كانت تملأ
الشوارع الفرعية وتزدحم بها الصالات والممرات المفضية الى القاعة،
والتي نصبت فيها اجهزة التلفاز لنقل الوقائع بالصوت والصورة معاً..
القاعة الكبرى نفسها، بادوارها كافة، كانت قد غصت بالحضور..

في يوم ليس ببعيد، كان المشاركون في المناسبات الاسلامية،
والدينية، لا يتجاوزون العشرات عدداً.. وكان معظمهم يدلف الى
الستين او السبعين من العمر. اولئك الذين ظلوا - على تقلبات الزمن
- اوفياء لذكرى هذا الدين الذي جعل للأمة التركية مكاناً في
العالمين.. بعدهم، وعلى حين غفلة وكالانكسارات الحادة التي تؤول
اليها فجأة حافات الجبال العليا.. يجد الانسان نفسه قبالة فراغ
مخيف.. جيل الشباب يدير ظهره لما اعتبره ماضياً غير جدير
بالالتفات، ويسمّ وجهه صوب الغرب.. ما كان احد منهم - بقوة
الايحاء اليومي المكثف والمتواصل - يقدر على ان يفصل، او يتصور
على الاقل، ان بالامكان فك الارتباط بين عقيدة الاسلام الحركية

الحية، برؤيتها المستقبلية، وقدرتها على التجدد والانبعاث.. وبين التاريخ.

إذا كان سلاطين آل عثمان قد مضوا، فإن الإسلام نفسه مضى معهم.. هذه الرؤية المسطحة للظاهرة الإسلامية التي أريد لها إن تمر إلى عقول الأجيال التالية وإن تتموضع فيها..

أما الآن.. فما الذي حدث؟

قاعة (مصطفى كمال) وهي تغص بالجيل الشاب نفسه الذي يعود إلى الطريق كما يعود الابن الضال إلى أمه وأبيه.. انهم يجدون أنفسهم في مكانهم تماماً.. في الحزن الدافئ.. في الوعد المبشر بحياة سعيدة في هذه الدنيا وفي الأبدية.

بعد رحلة تغرب معذبة دامت خمسين عاماً.. هاهم الآن يرجعون.. انظر على عجل - قبل أن اجلس - فتقر عيني.. واحدة من أسعد اللحظات في حياتي.. يخفق قلبي كطائر يريد أن يصفق وأن ينطلق.. ولكن إلى أين؟

أتمم بيني وبين نفسي: الحمد لله.. وأقول لجاري الأخ (أديب): انظروا انهم لا يجدون موطن قدم! فإرد مشعباً باليقين: ألم أقل لك؟!

عندما كنت في بلدي، ولسنوات طويلة، ربما تتجاوز الأربعين عاماً، كنت أسمع عن تيار شباب يشق طريقه في الأناضول.. ما كنت بقادر على أن أتخيل حجم التيار.. وإن أسبر غوره.. اللحظة أرى.. أسمع.. وأسبر.. فتقر عيني..

وتتوالى الكلمات .. اضاءات مكثفة لجوانب من المسيرة التي قطعها
الاستاذ عبر رحلته المضنية الطويلة .. كان يطلقها من على المنصة،
بمواجهة التلامذة تماماً .. قبالتهم .. متحدثون من شتى البلدان: من
امريكا والمانيا وايطاليا ومصر وتركيا .. والعراق ..

والآن يجيء دوري ..

ما الذي يستطيع المرء ان يقوله في خمس دقائق عن رجل ما استطاع
ان يقول كل ما عنده عبر خمسين عاماً . ومائة وثلاثين مكتوباً؟!!

وللحظات .. عرفت كيف يخرج الانسان من المأزق .. ان يتعامل
مع المفاتيح .. مع نقاط الارتكاز في فكر الاستاذ .. ما الذي اراد ان
يقوله بصوت عال، وكيف جابه العالم والظواهر والاشياء
والتحديات ..

كنت كمن يعاني من العطش ويحظى بجرعة ماء لا تكاد تروى
ظمأه وتبل ريقه .. لست في موضع المحاكمات العقلية، قلت في
نفسي، فهذه موعدها المؤتمر نفسه، اما الآن، فان اللحظة المدهشة
تتطلب شيئاً آخر .. شيئاً مغايراً تماماً .. ان تنتزع من قلبك الذي يخفق
بالحزن والمحبة .. بالعذاب والسعادة .. بالمرارة والعدووية .. كلمات قد
تمتص شيئاً من العناء .. وقد تصل بينك وبين الجمهور فتكهربه، وبذا
تفتح الطريق للتيار المحتبس، فيتسرب الى الكل الذي يصير الآن واحداً،
ولأنه كذلك فانه قد ير على تلقي السيل والامساك بالكهرباء ..

يا سعيد النورسي .. رفعت ندائي .. يا بديع الزمان .. ايها المعلم

والشيخ والاستاذ.. قم!.. قم لترى ما الذي صنعته يداك.. البذار الذي غرسته يشق الارض وينهض مستوياً على سوقه.. يعجب الزراع ليغيب بهم الكفار.. قم لترى العالم الذي تحدثت عنه طويلاً.. قلعة الاحاد الفكري في الشرق وهي تتهاوى فتصير حطاماً.. وقلعة الفساد الخلقى في الغرب يأكله الايدز، والمورفين.. قم لترى تلامذتك يملأون السهل والجبل.. تغص بهم الطرقات والساحات.. ويملأون مقاعد الدراسة والجامعات.. ويكفيك شرقاً ايها الاستاذ ان تغادر الدنيا والشموع التي اوقدتها في حلقة العالم، لا تزال تشتعل لكي تضئ الطريق للمدللجين في الظلمات..

ونحن نغادر القاعة يتقدم اليّ بعض الشباب مستائلين بعتاب: ماذا فعلت؟ اجفل بعض الشيء.. ولكن احدهم ما يلبث ان يقول: لقد جعلتنا نبكي: فأقول له: انه على اية حال الثمن الذي يتحتم علينا جميعاً ان ندفعه.. فليس في مقدور احد ان يتحمل لمفرده، هذا كله!.

في دار ضيافة (السليمانية) تحلّقنا حول المناضد جماعات جماعات.. تناولنا طعام العشاء.. وجرّتنا الاحاديث الي كل مكان.. ونودي على المشاركين واحداً واحداً، يتسلّم احدنا شعار المؤتمر المنقوش بعناية على النحاس الاصفر.. يلقي كلمة شكر وتقدير ثم ما يلبث ان يرجع لكي يفسح الطريق للذي سيليه. ما يلفت الانتباه ان كلاً منا تسلّم شعاراً يحمل اسمه بالذات بابتسامة عذبة مع الأخ الدكتور (فارس قايا) مدير مؤسسة الثقافة والعلوم التي نظمت المؤتمر.

مؤتمرات عديدة شاركت فيها، كنا نتسلم شعارها الذي يحفر على

نحاسة عنوان المؤتمر وزمنه، ومكانه.. اما هنا فان اسماء المشاركين انفسهم حفرت على النحاس، جنباً الى جنب مع العنوان والزمن والمكان.. قلت وانا اتسلم الشعر فتقع عيني على هذه الخصوصية التي يعرف الاخوة في تركيا كيف يعطونها المساحة التي تستحقها: هذه اغلى هدية اتسلمها في حياتي.. وانا بالتالي اعجز عن الشكر! تخونني الكلمات!

دفق المحبة النورية يغمر المكان.. وثمة نسمات مترعة ببرد الليل القادم تلفح الوجوه بحنان، وموشح تركي يتدفق كالشلال من مكان ما في الدار.. ما الذي بمقدور المرء ان يفعله سوى ان يرتشف لحظات الوفاق الفريد بين الروح والحس والوجدان.. لحظة لحظة.. متخففاً من كل صنوف المعاناة والعذاب.. متحرراً من كل صيغ التعاسة التي تكاد تغرق الانسان في عالم القصام النكد بين نداءات الحياة الدنيا واشواق الروح!

(٨)

عذبة رائعة كانت الرحلة الى (بورصة) ليس فقط لأننا اوغلنا اكثر فاكثر في جبال تركيا وبحارها واشجارها وعيونها وروابيها الخضراء، فعقدنا معها، كما فعل (الاستاذ) من قبل، علاقة مودة حميمة لن تفلت من الذاكرة، وصرنا جميعاً اصدقاء للنهر والبحر والشجر والنبع والشلال.. بل لأن الاخوة النورسيين انفسهم الذين جاؤا معنا الى (بورصة) او الذين استقبلونا هناك واصطحبونا ليومين كانوا كالأشجار والعيون والجبال والبحار والانهار، يعلمونك كيف تتوافق مع نفسك..

مع الاخرين.. مع كل شئ من حولك..

يبدو لي ان (الوفاق) هذا، هو اغلى ما في الوجود، وان (الاسلام) الذي يشتق اسمه ويرسمه من هذا المعنى العزيز نفسه، انما يريد ان يمنحنا هذه الهبة القيمة التي لا تقدر بثمن.. وان الرسول المعلم عليه افضل الصلاة والسلام، ما كان يريد في نهاية عمر حافل بصنوف المشقة والمرارة والعطاء سوى ان يضع امته، والبشرية كلها، في نهاية الامر، على الطريق الصحيح، منهيًا عصر السبل المتفرقة، المعذبة، التي استنزفت الانسان وما تزال!

البداية كانت في حدائق (امرگان) عند ضواحي اسطنبول.. كان الصباح مشرقاً جميلاً.. فوجئت وانا ادلف الى المكان انه يضم جناحيه على حشود من الاشجار البرية العالية وان كل واحدة منها تختلف عن الاخرى.. مهرجان مثير لأبداعية الله جل في علاه..

اشجار متفردة، مهندسة بعناية: الاوراق والاعصان والجذوع والالوان السخية المنتشرة عند حافاتنا بغير حساب.. بعضها.. كثير منها.. اراه لأول مرة.. لم اجد شبيهاً له في بلدي، او اي مكان آخر من العالم.. في المسافات بين شجرة واخرى كانت يد الانسان قد تدخلت لكي ترتب الحلقات والسنادين المترعة بالازهار، والتي تضيء بعروضها اللونية السخية.. بعبقها الذي يتصاعد مع تصاعد دفاء الشمس.. على (امرگان) نهكته عذبة لا يتسنى نسيانها بسهولة.

تناولنا الفطور والتقطنا صوراً تذكارية.. ثم ما لبثنا ان عبرنا جسر

البسفور الطويل صوب الضفة الاخرى.. بعد نصف ساعة كنا ندلف الى احد المراكب لكي يجتاز بنا جانباً من «مرمرة» مختصراً الطريق الطويل.. حافات البحر الشرقية تلوح للمسافرين بقراها الانيقة وخضرتها الواعدة، اما الحافات الغربية فتصعب رؤيتها، حيث يمضي البحر بعيداً باتجاه الغرب.

صلينا الظهر في مسجد انيق، ثم انطلقنا بالسيارات صوب (بورصة).. وصلناها عصراً.. مدينة كبيرة مترامية الاطراف.. لم يكفها ان تلتهم السهل الشرقي حتى مضت غرباً لكي تتسلق التلال والمرتفعات المطلة عليها.. ودائماً يصير الجامع، الموغل في ذكريات العقيدة والتاريخ، المتشكل على يد السلاطين الكبار الذين يحلمون بفتح اوربا ومواصلة الطريق الذي بدأه معاوية وسليمان وهارون الرشيد.. دائماً يكون الجامع هو مركز الثقل في معمار المدن التركية ونقطة الجذب والطرْد فيها.. اشار أحد الاخوة ونحن نجتاز المدينة، الى بعض هذه الجوامع: عثمان.. اورخان.. وبايزيد.. تشوى اجسادهم هناك ومن حواليتهم اجدات الابناء والاحفاد.. لكأنهم ارادوا ان يبدؤا من الجامع وينتهوا اليه.. متشبّثين في حياتهم ومماتهم بالمكان الذي جعلهم سادة على العالمين.. ومن اجل ان يكونوا اوفياء، جعلوا منطلقهم الى العالم من الجامع، ثم عاد كل واحد منهم، بعد عمر طويل من الجهاد الدامي لكي يثوى هناك!

تذكّرني القبور المزدهمة للابناء والاحفاد.. والمتحلّقة حول قبور الاباء والاجداد، بلوحة سريلية، لا ادري لماذا.. ربما لأنني وجدت

نفسي، بشكل من الاشكال، في حالة حلم من نوع ما.. حلم يتأبى
على التحليل المنطقي ويستعصي على الاسباب!.

(٩)

في صبيحة اليوم التالي نركب (التلفريك) الذي يصعد بنا على
السلك الرفيع صوب الاعالي.. ثمة خوف من المرتفعات الشاهقة قادم
الي من مغامرة خطرة زمن الطفولة، يجعلني اتشبّث، اكثر فأكثر،
بحافة المركبة وهي تنز بثقلها ميممة صوب القمة التالية.. يقول لي احد
الاخوة: انظر انها لوحة رائعة.

على مضض احدق الى اسفل.. الوادي العميق اصبح اكثر نأياً،
وقعره البعيد لم يعد يرى.. والشئ الذي يسرق النظر، كما يقول
الفنانون.. الشئ الذي يضيع معه التوجّس والخوف، هو رؤية اوراق
الاشجار الكثيفة من فوق.

برؤية طائر، كما يقول الفنانون ايضاً، اطل على الغور البعيد..
مهرجان لوني لعالم جميل يدلف الى الخريف.. يتداخل في اوراقه
الكثيفة وعلى صفحاتها المتشعبة بالبقاء كل ما يعرفه الانسان من
درجات لونية تبدأ بالابيض وتنتهي الى الاخضر العميق، مجتازة
الاصفر والبرتقالي والناري والاحمر والبني بتداخل مدهش تغيب فيه
الفواصل والحدود.

نصعد الى قمة اكثر ارتفاعاً في (تلفريك) اخر.. نغادره بعد
قليل.. قمة مستوية تمتد فيها المساحات.. هاهنا ايضاً لا يحار المسلم

اين يصلي .. المسجد الانيق، الذي يتلقى لمساته الاخيرة، يناديك.
اقول للأخوة دهشاً: الدين والدنيا .. اشير الى الجامع الانيق القريب
من السماء، والى الارض المفروشة بالزهور والحشائش البرية .. الى
الاشجار المتناثرة على غير انتظام، والى العوائل السعيدة .. والاطفال ..
والصبيان وهم يتقافزون هنا وهناك .. وثمة روائح الشواء التي تفعم
الانوف وتثير الشهية ترتفع من مناول الفحم المشتعل، والمبعثرة في كل
مكان ..

بورصة .. واسطنبول قبلها .. علمتنا اشياء كثيرة .. هاهنا، اللحظة
اجدني في حالة من الوفاق النقي كالبللور .. الوفاق الذي لا يكدره
شئ بين افراح الروح وتوقها للصعود اكثر فأكثر الى فوق .. وبين
نداءات الحس التي تجد في القمة العالية القريبة من السماء .. في
الخصرة الواعدة .. في الاشجار الينابيع .. في الشمس الوانية والسحب
المبعثرة التي تمتص اشعتها بشغف .. في القمم المغطاة بالثلج .. في
الناس .. والحركة .. وبريق الاشياء .. تجد نفسها تماماً فتلتحم بالوجد
اكثر فاكثر .. تتعاشق معه، وتصير واياه شيئاً واحداً ..

يختار الاخوة مكاناً جميلاً نتحلق فيه على المنضدة التي صفت
عليها بعناية اطباق التين والزيتون .. الى قريب منا جيئ بمنقل كبير
اشعلت فيه النار .. بعد لحظات كانت رائحة الشواء تختلط بعطر
الارض الرطبة، والازهار البرية واوراق الشجر المتساقطة بهدوء.

يريدون، كعادتهم دائماً، وكما علمهم رسول الله عليه السلام ان

يقول احدنا شيئاً قبالة نعمة الله، ونحن نوشك على الانتهاء من غدائنا.. كان شلبي واصحابه، قد رحلوا قبل يومين عائدتين.. يجيء الدور عليّ هذه المرة، فلا أجد اعذب واجمل مما كان يقول رسول الله ﷺ إثر كل طعام مخاطباً المضيفين: (اكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده..) دائماً ومن خلال اشد الممارسات كثافة وحسية، كان النبي المعلم يذكرنا كيف تكون المفردة اليومية.. الملذة المتوافقة مع الخلق والتكوين وطبائع الاشياء.. طريقاً للصعود الى فوق.. ليس ثمة اي تناقض او ارتطام.. الهسيس القاسي في اعماق النفس البشرية المعذبة، الممزقة، لا تجده هنا.. بينما تصير متع الحس في الاديان المحرفة خروجاً على الناموس، فيتألم الانسان ويوغل في شرايينه الاحساس الآثم بالخطيئة.

هنا.. الدين السّمح المتوافق مع كل شئ جميل ممتع عذب في هذا العالم، يقول شيئاً آخر.. يعطي شيئاً آخر.. هاهنا، قبالة المائدة نفسها، تصليّ الملائكة، ويذكر الله جل في علاه عند الملأ الاعلى، كل اولئك الذين شبعوا، فحمدوا الله!

لست ادري ان كان قد انتاب الآخرين الاحساس نفسه الذي يمسك بخناق بين الحين والحين فيعذبني.. هذا التناقض الحاد بين ما اراد الاسلام وبين ما تمارسه كل الاديان المحرّفة والمذاهب الاخرى.. هذا التقابل بين الوفاق والتبعثر، بين الانسجام والارتطام.. بين ما يجب ان يكون وما هو كائن.. يتشكل في نقطة ما من وجدان المؤمنين، صوتاً معذباً يئنّ في الاعماق ثم ما يلبث ان يدوم مصعداً الى فوق،

متحولاً الى صرخة مكبوتة تريد ان تغادر الأسر، ان ترفع شكواها قبالة الكون والعالم والوجود، مذبذبة كل عذاباتهما، وتمنياتهما، في تساؤل طويل مديد: لماذا؟

ينحدر بنا (التلفريك) الى بورصة كرة اخرى.. كنا على موعد معها.. هكذا تبين لي فيما بعد.. فعندما تصير في العنقوان، تنسى بدايات الاشياء ونهاياتها.. تنسى - حتى - المواعيد المضروبة في وقت ما بينك وبين المدن التي احببتها..

اما الان.. اللحظة.. فان السيارات تصعد بنا الى شرايين بورصة الغربية موغلة في المرتفعات، متعرجة متموجة.. تغيبك حيناً عن السهل الفسيح الممتد الى ما لا نهاية.. ملاحقاً مشرق الشمس.. ثم ما تلبث ان تطل ثانية على المدى المفروش قبالتك تماماً: بالبيوت والاسواق، والشوارع والناس..

سيارات اخرى كثيرة كانت تصعد هناك.. في الأصيل.. حيث يوم العطلة الذي ينطلق فيه الناس ليروا ويسمعوا ويذوقوا.. لكنها جميعاً لم تكن كسيارتنا.. سيارة الاخ (س) عضو مجلس الشعب في بورصة.. كنت اجلس الى جواره وهو يقود سيارته.. والى الخلف جلس الاخ محمد رشدي.. مكتوب عليه ان يذوب مثلي في الصوت التركي المنبعث من جهاز التسجيل.. شفاعة يا رسول الله.. كرة اخرى.. الأخ (س) يعرف ماذا يختار.. اكاد وانا انصت اليها انطوى على عذابات الدنيا.. على تشرد المسلم وغربته في هذا العالم.. تمنحني وهي تتدفق عذوبة يصعب نقلها للاخرين.. يستعصي وصفها على الكلمات.. لا

تجيب من قوانين الفيزياء. ومعادلات السلم الموسيقي.. انها هناك تتدفق من فوق.. من مكان ما لا ادري اين تتشكل بداياته القصصية واين تنبجس ينابيعه الاولى.. افي الروح الموغلة في المجاهيل أم في السماوات القصصية.. اذكر من يتوجسون خيفة من الموسيقي.. اعرف تماماً لماذا.. انها في الحالات الاعتيادية تفصلهم عن دفق الايمان.. عن لحنه الباطني المتفرد الذي يرفض ان يشاركه صوت اخر.. عن التوافق العفوي مع السنن والنواميس والاشياء.. وتدخل.. كشيء نشاز بينهم وبين العالم، لذلك هم يخشونها، ولعلمهم ايضاً - يحرمونها، وهم في هذا محقون..

اما هنا، فان الأمر يختلف، ان الموسيقي نفسها تصير نداءً يضعك في قلب التوافق بين الظواهر والاقطاب.. تمنحك مكاناً يعلو على الاشياء العابرة المنصرمة.. تسلمك مفاتيح الطريق الى الكون، حيث ينصهر كل شيء في هذا الوجود في ايقاع متوحد.. في نبض يخفق بايمان من نوع صاف كالبللور.. يشع بالحزن والفرح.. بالحبّة والثورة.. بالعطش والارتواء.. وبكل الثنائيات التي تنسجم هاهنا، وتتناغم لكي ما تلبث ان تخرج صوتاً عذباً متوحداً ينطوي على كل النداءات المستفزة للوجدان الايماني في هذا العالم.

والشريط يدور.. والصوت العذب ينادى الله الواحد جل في علاه.. والسيارة تمضي مصعدة، مجتازة الطرق المتعرجة والمنحنيات الصعبة.. تقف لدقائق عند شجرة حور عمرها مئات السنين.. جذعها الهائل يغور في طبقات الارض، واغصانها المتعرجة الممتدة بعيداً..

بعيداً جداً.. تغطي مساحة واسعة من الفضاء فلا تنكسر ولا تميل..
معجزة الخلق هذه الشجرة، نتعلم منها كيف يكون التوازن العجيب
وكيف تمضي السدم والنجوم في رحيلها الكوني دون ان تقع احداها
على الاخرى..

ما كنت ادري ان كان (محمد رشدي) يكافح الدموع بصمت
مثلي.. فانا اعرفه جيداً لا يطيق الصبر.. وهو كلما سمع تأوه الناي،
صرخ: انه يحترق.. ولكنني استطيت ان اجزم اننا سوية ازاء النداء
الملتاع للصوت وهو يدوم مصعداً باتجاه نقطة ما في الملكوت..
صارخاً: شفاعة يا رسول الله.. اجزم انه كان يبكي - وبصمت -
مثلي..

للحظات خشيت ان يراني الاخ (س).. ولقد رأني فعلاً.. ولكنني
اقول في نفسي: لا بأس فهو الآخر يعرف جيداً.. هو الآخر اکتوى
قبلي وقبل رشدي بالنار.. ونحن جميعاً وأي مؤمن في الدنيا، عندما
يضعه الصوت المتلوي الحزين المصعد من اعماق غور في الوجدان
البشري، قبالة النبي المعلم، صارخاً: شفاعة يا رسول الله.. لابد ان
يبكي..

ان يوم الحساب عسير.. وخطايانا كثيرة كالجبال.. وقلوبنا
اكسدتها الاحزان فعلاها الصدا.. وهي اللحظة تنتفض كعصفور بالله
القطر، متشبثة، في يوم الهول الآتي، باذيال النبي، منادية اياه بلهفة
وتوجع: شفاعة يا رسول الله!

(١٠)

الدمع هو المطهر

ورعدة الحزن الموغل في الروح جواز السفر اليك

با نبي المنفيين والمعذبين والغرباء

الدمع يذيب الآثام والخطايا

يزيل الحواجز ويلغي المسافات بيننا وبينك

فنهتف، متوحدين، منتظرين اليوم الذي سنهرع فيه اليك

لكي نرفع نداء التوسل بين يديك

شفاعة يا رسول الله!

عشرات السنين التي عشتها تبدو الآن وكأنها هباء

محبتك تعمر قلبي.. تسري في اوصالي.. فتمنحني الحياة

ينتفض العقل والقلب والحس والوجدان كما لو أنها تبعث اللحظة

الآن.. الآن فقط.. احس انني احيا

انت الذي تمنحي الدفاء والفرح

تأخذ بيدي من شد الارض وعممة الطين صوب الاعالي

حيث تقطر السماوات بالنور فتسكر الروح منتشية وهي تتلقى

الدفق الاتي من فوق

اتواجد يا رسول الله

انتفض عشقاً واكاد اذوب

اضع هذا كله .. اصهره في نداء يتزف من القلب المثخن بالجراح:

شفاعة يا رسول الله!

في اسطنبول .. في بورصة .. وانا استمع موشحاً تركيا

قبالة شجرة الجنار الباسقة

ازاء كل الاشياء الجميلة في هذا العالم

نهض (النورسي) لكي يقف قبالتي

لم استطع ان اتبينه للوهلة الاولى

شيئاً فشيئاً .. اتلقى صوته المتهدج، يتماوج عميقاً مؤثراً

يشير بكلتا يديه الى الانهار والينابيع والشلالات والجبال

اللغة التي كان يحكي بها ما كانت تركية ولا عربية

ايقاع متفرد عجيب كان يجتاز غشاء القلب ويمضي الى الاعماق

تبيّن لي وهو يشعل النار هناك

انه كان يجأر ملثاعاً: شفاعة يا رسول الله!

في جوامع الفاتح واحمد وسليمان
يتعالى النداء نفسه .. الوعد نفسه .. العشق نفسه !
هذه الاصوات التي تذوب وتذيب
آه من العشق الكوني الذي تعلمته هناك
ان تصوير والورد والشجر شيئاً واحداً
ان تتعاشق مع الانهار، والبحار ، والوديان والجبال ..
وتسبح معها بحمد الله ..
سأحملك معي يا اسطنبول واهديك لبلدي
ليس ثمة اعلى من هذا يمكن ان يقدمه العشاق لمن يحبون!
احمل معك كل ما انطبع على غشاء القلب واوغل في مسارب
لروح والوجدان
اشياء كثيرة عرّشك هناك
ولكن ليس ابداً كذلك الصوت العذب
الصوت المتلهّف، المترع حزناً وهو يتلوى متوجّعاً في موشح تركي:
شفاعة يا رسول الله!

اعطيتموني المحبة ايها النورسيون

فماذا اعطيكم؟

كل ما سأقدمه لكم لن يكون كفاء ما اعطيتموني ، فماذا اعطيكم؟
في الطريق الى (كوزلجة) استمعت لأول مرة اليه ..

بعدها ونحن نتسلق روابي (بورصة) سمعته مرة اخرى .. فبكيت
لن يكون بمقدور احد يملك قلباً الا ان يبكي ..

يهتز وجداً وهو يتلقى لوعة الصوت المشكي المصعد من اعماق

الروح

فما يلبث ان يتصادى في الفضاء الكوني الذي لا بدء له ولا

انتهاء ..

ان يدوم مع الشمس والقمر والنجوم .. ويتماوج في دورة الافلاك

الكبرى

هناك في الاماكن القصية وهو يردد:

شفاعة يا رسول الله!

رجعت الى داري فلم تعرفني زوجتي ولا اهلي ولا اولادي!

كنت قد هزلت .. شحبت كثيراً ..

الوجد كان قد اكلني .. المحبة اعتصرتني ..



الحزن العميق طرد من قلبي كل تعلق بالاشياء.. والرغبات
والموجودات..

كن يؤلمني انني لا استطيع ان اقول لهم ما بي..

ما يضمنيني اكبر من ان تحمله اليهم الكلمات..

لقد ذوّبني العشق.. انظروا..

ها هو ذا يحيلني شبحاً لا يكاد يرى..

فاهتف: لقد برّحني الوجد كما لم يبرّحني شيء في هذا العالم..

تُرى .. هل سالتقيك مرة اخرى؟

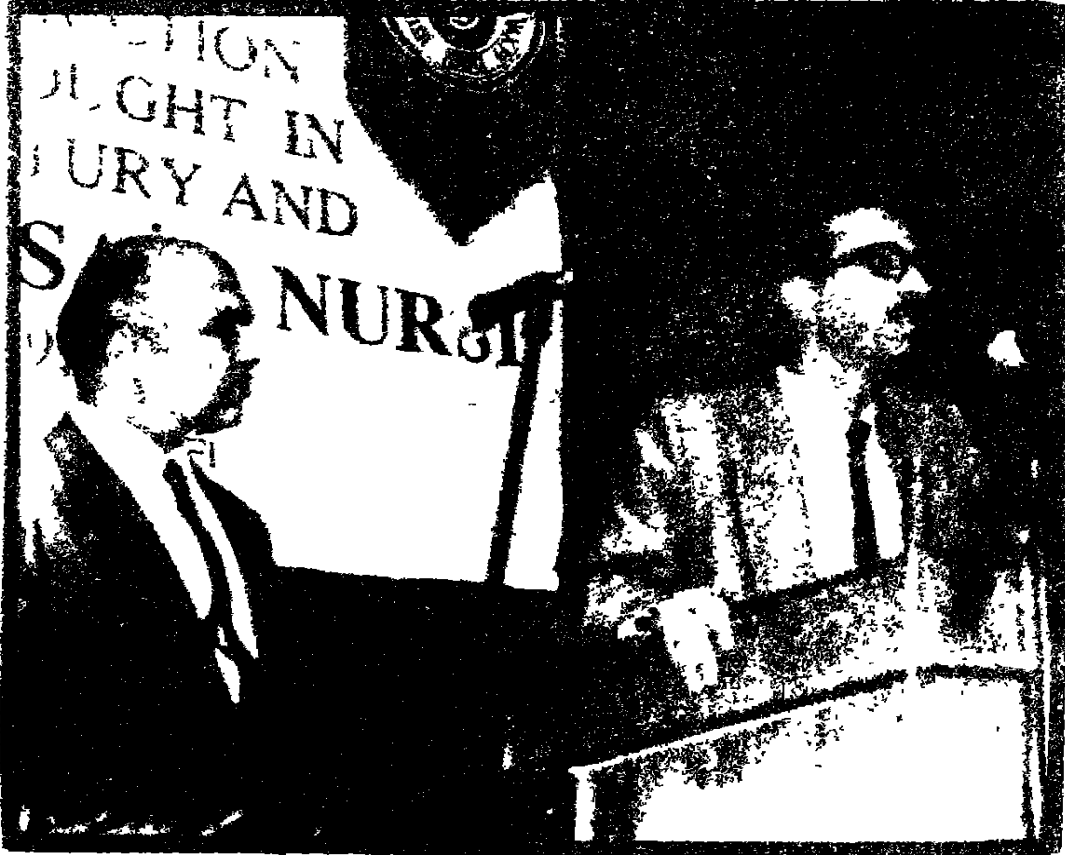
المحتويات

- المقدمة: للدكتور عبد الرحيم السايح ٥
- الاستاذ اديب ابراهيم الدباغ ٩
- هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته
- الاستاذ احمد بهجت ٣٩
- ### الرجل والدور
- الدكتور عبد الرحيم السايح ٥٥
- سعيد النورسي واثره في ترسيخ الايمان
- الاستاذ محمد رشدي عبيد ٨١
- ملامح تربوية في رسائل النور
- الدكتور عبد الودود شلبي ٩٧
- النورسي المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد
- الاستاذ الركتور عماد الدين خليل ١٢٥
- رؤية جماليه في «الكلمات»
- الاستاذ حسين عاشور ١٧٥
- النورسي والدفاع الاستراتيجي
- انطباعات قسم من الاساتذة:
- رسالة الدكتور عبد الودود شلبي ١٨٧
- الرحيل الى اسطنبول للاستاذ الدكتور عمادالدين خليل ١٨٩

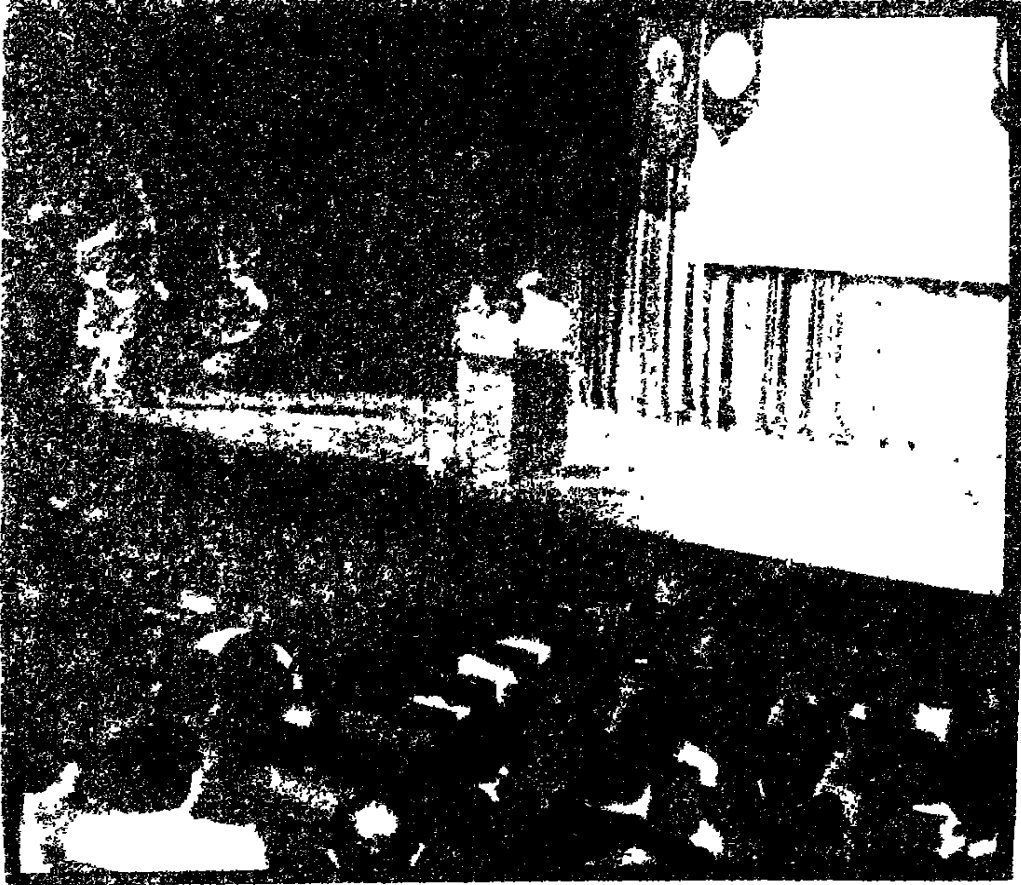


الدكتور عبد الودود شلبي يلقي كلمته والاساذ الدكتور سعاد يلدرم

يؤدي مهمة الترجمة



أ. د. عماد الدين خليل يلقي كلمته في الافتتاح وأ. د. سعاد يندرم
يترجمها.



الدكتور كولن تورنر (اسكترا) يلقي كلمته والحدت حيا الى عساان
يترجمها الى التركيه



To: www.al-mostafa.com